

الرسالة

5 me Annee, No 224.

Lundi - 18 - 10 - 1937

بدل الاشتراك عن سنة

ص	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
ت رقم ٤٢٣٩٠ و ٥٣٤٥٥

السنة الخامسة «القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ شعبان سنة ١٣٥٦ — ١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٧» العــدد ٢٢٤

فهرس العــدد

الحــــرب

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

كان الذى يقول — قبل بضع سنوات — إن الحرب واقعة وأن العالم مقذوف به فى جحيمها لامحالة ، يعد من المنجمين الذين يُقرأ كلامهم للتسلية ولا يُحمل على محمل واحد من محامل الجد ؛ أما الآن فإن الحرب على كل لسان وفى كل ذهن وإن كانت كل دولة تقول وتؤكد إنها لاتريدها ولا تسعى لها وأنها تحاول أن تتقيها جهدها . والحق أن المرء لايكاد يصدق أن دولة ما — مهما بلغ من وفاء عدتها — تُقدم على إضرام نار الحرب فى الدنيا وتعرض المدنية للبوار ، وكيان العالم للتقوض والانهيار . وهى شرارة واحدة تطير فإذا الدنيا كلها براكين تقذف بالحمم فقد مضى الزمن الذى كان يسع أمتين فيه أن تقتتلا ما شاءتا ، وبقية الأمم وادعة ساكنة وآمنة مطمئنة لاتكاد تُعنى بما يجرى فى ساحة الحرب ، وصرنا إلى زمن كل مايحدث فيه له رجعه وصداه فى كل زاوية وركن من هذه المعمورة . ولا أمل فى هجوم مختلس وزحف سريع فاذا النصر قد خرجت به أمة والهزيمة قد باءت بها أخرى . ولم تعد الحرب قتالاً بين جيش وجيش بمعزل عن

الأمم والشعوب بل أصبحت تدور بين الأمم نفسها بكل ما تملك من وسائل التدمير والتخريب ومعدات الدفع والتوقى ، وليس الذى يصيب غير المحاربين من البلاء والنكبات والتقتيل دون الذي يصيب الذين هم فى الصفوف . ولا فرق فى الحقيقة — أو لم يبق ثم فرق — بين مجند يحمل سلاحه ويسير إلى حيث يؤمر ، وآخر يقيم فى بيته بين أهله وأبنائه ويذهب إلى عمله الذى يكسب منــه رزقه ؛ وقد يكون الجندى أحسن حالاً لأنه يجد على الأقل من يعنى بتدبير وسائل الوقاية له وتوفير الطعام والشراب وتمكينه من الراحة على قدر المستطاع ، أما أهل المدن والقرى من شيوخ ونساء وأطفال وغير هؤلاء وأولئك ممن لا يُؤخذون للحرب فيُفاجأون فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار بالتخريب والتدمير والتقتيل من غير أن تكون لهم أمثال الوسائل المتوفرة للجندى الذى فى الصف للدفاع والهجوم ومقابلة كل طارىء بما يستدعيه

نقول إن المرء يصعب عليه أن يصــدق أن دولة تجازف بالإقدام على الحرب واحتمال تبعة إضرامها فى العالم لأن أهوالها أفظع من أن تسمح بهذا التصديق ، ولأن النصر فيها كالهزيمة من حيث الخراب الذى يحل بالفريقين المحتربين ، ولأنها لا بد أن تطول حتى تستنزف القوى جميعاً بعد أن أصبحت جهاداً بين شعوب لا مجرد اعتراك بين جيوش ؛ حتى النساء صرن يجندن أو يدربن على أعمال الجنود ، أو يستخدمن على الأقل فى المصانع والمستشفيات من ثابتة ومتنقلة وفى سوق السيارات وغير ذلك مما يسهل أن يقمن به وهن بعيدات عن الصفوف الأولى للمحاربين

ولــكن الأمم على الرغم من هول الحرب تبدو ماضية إليها بسرعة ، ولا تكاد تلوح بارقة من الأمل فى اتقائها واجتناب كارثتها الشنيعة ، فــكل دولة تكدس السلاح والذخيرة وتحث المصانع على العمل المتواصل ، وكل مجهود موجه إلى استيفاء الأهبة فى كل باب ولــكل احتمال . والشعور بالاستعداد — أي بالقوة — يغري بالتهور كما يمكن أن يصد عنه ، فالذين يقولون إن أحسن وسيلة لمنع الحرب هي الاستعداد لها مصيبون ومخطئون فى آن معا . فما من شك فى أن علم الدولة التى تحدثها نفسها بالحرب أن غيرها مثلها استعداداً لمقابلة الشر بمثله ، خليق أن يبعثها على التردد الطويل والحساب الدقيق للعواقب ، ومتى بدأ الحساب فالإحجام مرجح لأن المفاجأة الحاسمة مستحيلة فى هذا الزمان ، وعند كل أمة من الرجال والعقول والمواهب مثل ما عند الأخرى — ونعني أمم الغرب على الأقل — وكل دولة تستطيع أن تستدرك ما يظهر لها من النقص بسرعة كافية . وقد جرب العالم هــذا فى الحرب الكبرى، ومعلوم أن ألمانيا فاجأت الحلفاء يومئذ بالغازات الخانقة فما لبث الحلفاء أن اتخذوا الـكمائم ثم ما عتموا أن اهتدوا إلى صنع الغازات فصاروا يرسلونها على الألمان كما كان يرسلها الألمان عليهم . واحتاجت بريطانيا إلى بعض المواد التى لا غنى عنها لصنع الذخائر — وكانت قد أصبحت منقطعة أو عزيزة المنال — فاحتثت همم علمائها فهداهم البحث والتجريب إلى ما يحل محل هذه المواد ويغني غناءها وهكذا . ولا شك أن كل أمة تعول على سلاح لديها أكثر مما تعول على سواه ولـكنها لا تستطيع أن ترجو طول الانفراد به وبمزيته بعد أن تلح به على أعدائها فى الحرب

غير أن وفاء العدة يغرى من ناحية أخرى بالغطرسة ومحاولة التحكم، ومتى صارت الأمم كلها شاكية مستعدة فأخلق بذلك أن يجعلها أضيق صدراً عن احتمال الغطرسة والشموخ . والأعصاب تتلف فى مثل هذه الأحوال . وقد يكون تلف الأعصاب أجلب للحرب من أى سبب أو باعث آخر ؛ ولهذا ترى أنصار السلم ينصحون بالسكينة واتزان الأعصاب وضبط النفس والحرص على ذلك مهما بلغ قوة الشعور بالاستفزاز

وأسوأ ما فى الحالة أن الحرب تدور رحاها شيئاً فشيئاً وفى مكان بعد مكان حتى ليخشى أن تنتشر وتعم الدنيا ؛ ونارها توقد بلا إعلان . ففي إسبانيا لا تدور الحرب بين فئتين من الأمة وإنما هي بين دول شتى فى الحقيقة لــكل منها مأربها وغايتها وسلاحها الذى تجربه وتختبر فعله وغناءه . وفى الصين قامت الحرب بلا انذار أو إعلان وقد تضطر دولة أو دول أخرى غير الفريقين المتحاربين أن تخوضها معهما فتتسع الدائرة ويعظم الخطب ولا يؤمن اندلاع النار فى قارات أخرى . فاذا ظل هذا يحدث فى رقعة بعد رقعة من الأرض فماذا يكون المصير ؟ وحيال هــذه الحالة لا ندرى كيف يسع إنساناً أن يطمئن إلى استقرار السلم وإمكان تفادى الحرب ؟ إن كل ما يسعى له أنصار السلم والمشفقون على العالم

وحضارته هو أن يحصروا هذه الحروب فى مناطقها حتى لا تعدوها أو تمتد إلى سواها كما يفعل رجال المطافئ حين يرون النار قد شبت فى بيت أو مصنع . وليس هذا من التشبيه أو التمثيل فانها النار هنا وههنا بلا فرق أو تفاوت سوى أن نار الحريق أهون من تلك التي يؤججها التدبير المحكم

ومن العسير أن يتكهن المرء بشيء فقد صار العالم يعيش يوماً فيوماً فاذا مضى يوم ولم تتفاقم فيه أزمة ولم يستفحل فيه خلاف حمد الله وشكره ورجا أن يجيء الغد بما يفرج الكرب أو يرجئه أو يلطفه على الأقل .

ابراهيم عبد القادر المازنى

كلبي « بيجو »

للأستاذ عباس محمود العقاد

أنا أكتب هذا المقال عن « بيجو » وهو ينظر إلىّ ، ثم يذهب ويعود ليطل مرة أخرى ولا يدرى أننى أكتب عنه وأشيد بذكره ؛ وكل ما يدرى أننى جالس فى هذا المكان الملعون الذى يجب كل مكان فى البيت غيره ، وهو كرسى المكتب

فنى كل مكان فى البيت يرانى مستعداً لملاعبته واستجابة نظراته، والتفرج على فنونه وألاعيبه وقفزاته ، أو يرانى مستعداً للإشارة إليه واستدعائه فإذا هو واثب وثبة واحدة إلى حيث يستوى على مكانه بجانبى ، ويغرينى بملاطفته ومجاملته أن أبذل له الملاطفة والمجاملة وأحييه بعبارات التودد والمجاملة

ينتظر منى ذلك فى كل مكان إلا كرسى المكتب ... فإذا جلست إليه لأكتب أو لأقرأ فهو حائر لا يدرى ما يصنع : يدنو من الكرسى إلى مسافة قصيرة ، ثم يرفع رأسه وينظر ، ثم يعيد النظر كرة أخرى ، ولعله يسائل نفسه : ما بال صاحبى لا ينادينى ولا يجيبنى ؟ وما بال عينيه تتجهان أمامه وقلما تتجهان ناحيتى ؟ فإذا طال عليه التساؤل والترقب رجع أدراجه وغاب هنيهة ثم عاد إلى المكتب يترقب كلمة النداء ، أو نظرة الاستدعاء ، أو لمسة التربيت والاحتفاء ؛ ولا يزال كذلك حتى ييأس ويسأم فيولى وجهه شطر ألعوبة يتلهى بها ، أو شغلة أخرى من الشواغل البديعة التى يفرضها على نفسه ولا يفرضها أحد عليه ، وأولها حراسة الباب والعواء على من يصعدون السلم أو يهبطونه !

وقد تبعنى اليوم إلى المكتب ونظر إلىّ قليلاً ثم غادر المكان الملعون يائساً عابساً دون أن يلح فى الانتظار والمناورة ، لأنه تعلم بالمرانة الطويلة أن الانتظار فى هذا المكان لا يفيد ، وأن الكلب العاقل الرشيد هو الذى يغادر مكان الكتب والأوراق بغير تدبر ولا تأمل ولا إطالة . والحق معه حتى فى آراء الأناسىّ العقلاء الراشدين !

وقد أردت اليوم أن أدهشه وأخلف عادته فرفعت رأسى من الورق فى بعض جيئاته وصحت به منادياً : بيجو ! بيجو ! تعال ... إن كتابتى اليوم تعنيك . ألا تريد أن تقرأ ما كتبت ؟ فوجم ولم يكد يصدق أذنيه . وتردد لحظة ، ثم قفز إلى الكرسى فالمكتب حيث الورق الذى أخط عليه هذا المقال ... كأنه يريد حقاً أن يقرأه ويستطلع ما فيه ، وكأنه لا يفضل بالعقل والرشد أولئك الآدميين الذين يعنيهم ما يكتب عنهم الكاتبون كما ظننته لأول وهلة ! ولكنه ما لبث أن أخافنى من أسلوبه في القراءة والمطالعة ، لأنه هو والتمزيق فى عرفه شيء واحد . وهل هو بدع فى أسلوبه وهذا شأن كثير من الآدميين الذين أكتب عنهم ؟ فنحيته برفق وحملته إلى الباب وأرسلته فى الدهليز ، وعدت إلى المكتب فأقفلته ولا أزال أسمع نباحه يلاحقني بلهجات تتراوح بين الاستغراب والشكاية والسباب !

ويجب أن أعترف للقراء بأن كلبى « بيجو » ليس بكلبي على التحقيق ، ولكنه كلبى فى شريعة الدعوى والاغتصاب ، أو هو كلب صديقى العزيز « فيفى » الذى لم يجاوز السنتين إلا منذ شهرين ، ولا إخاله إلا مطالبى به قريباً بعد أن زال الموجب لاقصائه وهو انحراف صحته فى موعد التسنين ، وفيما أصابه على أثر ذلك في مصاب أنقذه الله من خطره الشديد

والأصل فى المصائب أن تجمع بين الأصدقاء لا أن تفرق بينهما كما افترق فيفى وصديقه بيجو ... ولكن اللوم فى هذا الافتراق على صداقة بيجو دون غيرها — أى على إفراطه فى

الصداقة لا على تقصيره فيها — فمعاذ الله أن يتهم كاب بخيانة الأصدقاء

كان بيجو يرى « فيني » على سريره ساكناً من التعب والاعياء فلا يحسب أن شيئاً تغير بينه وبين مولاه ، ويقفز إلى السرير ليعرض خدماته التي لا يكل عنها ولا يتوانى فيها ، وهي المواثبة والملاعبة واصطناع العض والمصارعة ، ومولاه في شاغل عن ذلك ولكنه هو لن يقبل العذر ولن يعرف شاغلاً أهم من تلك الخدمات المرفوضات

وإذا أقبل الطبيب وصرخ « فيني » من مقاربته وجسه وفحصه كما يصرخ جميع الأطفال من جميع الأطباء فما هي إلا لمحة كأسرع ما يكون لمح البصر وإذا بأنياب « بيجو » توشك أن تنغرس في ساق الطبيب الذي يعتدي على مولاه بما يبكيه !

أما إذا ربطوه اتقاء لهذه المفاجآت فلا راحة ولا قرار في البيت كله ، لا لمولاه العزيز ولا للنائمين حوله أو الساهرين عليه

لهذا عوقب « بيجو » على إفراط صداقته بالنفي من جوار مولاه في أثناء توعكه وانحراف مزاجه ، ورضيت أنا أن أتولى مؤاساته وحراسته أيام منفاه ، حتى تنجلي الغاشية فيعود إلى مأواه

وما انقضت فترة وجيزة حتى أصبح « بيجو » شخصية من شخصيات البيت المعدودة ، وحتى فرض على نفسه واجبات وأعمالاً لم يفرضها أحد عليه ، ولكنه يغضب ويتذمر إذا أنت قاطعته فيها أو عوقته عنها ، كأنك تحسبه مخلوقاً عاطلاً لا يصلح لعمل ولا يؤتمن على واجب ...

عرف الفرق بين جرس التليفون وجرس الباب ، فلا يدق هذا أو ذاك إلا أسرع إلى الاجابة ، وغضب من الخادم كلما سبقه إلى غرضه فتظاهر بعضه والوثوب عليه . ومن عجائب ذكائه أنه إذا سمع جرس الباب أسرع إلى الباب ولم يفعل كما تعود أن يفعل حين يسمع جرس التليفون . مع أن جرس الباب يدق في المطبخ حيث يكون الخادم ولا يدق في المكان الذي يجري إليه . ولعله عرف أن فتح الباب هو المقصود بدق الجرس في المطبخ كلما جرى الخادم لفتحه على إثر سماع دقاته ، ولكن تفريقه بين الجرسين براعة تشهد له بالقدرة على مزاولة الأعمال والواجبات

ومن الأعمال والواجبات التي فرضها على نفسه ولم يفرضها عليه أحد أنه لا يدع إنساناً ولا حيواناً يصعد السلم إلا أدركه بنباح الاحتجاج من وراء الباب فيعدو أمامي ويعود إليّ ولا يزال يرقص ويتوثب حتى أجزيه على استقباله بالتحية الواجبة والتربيت المحبب إليه

ألأجل الطعام يهش لي « بيجو » هذه المشاشة ويرعاني هذه الرعاية ؟ أنا أود من الباحثين في طبائع الحيوان أن يراجعوا ملاحظاتهم وأحكامهم في أسباب التآلف والمودة بين الحيوان والإنسان ، فإن إطعام الكلب ولا شك سبب من أسباب وفائه وتعلقه بأصحابه ، ولكن لاشك أيضاً في أن الكلاب تفهم للمودة أسباباً غير الإطعام وتدرك معنى من معاني الصلة النفسية ليس مما يرتبط بالمنافع ؛ وأوضح دليل على ذلك أن « بيجو » يعتبر نفسه تابعاً لمولاه « فيني » ولا يعتبر نفسه تابعاً لأبيه أو خادم أبيه ، وكلاهما يطعمه ويلاطفه ويسقيه . أما « فيني » فهو لا يطعمه ولا يسقيه ولا يتورع عن خطف طعامه إذا ساغ في مذاقه ، وقد يتبرم به فيضربه أو يقبض على لسانه أو يضع أصبعه في عينه ، وبيجو في كل ذلك لا يقابل الأذى بمثله ولا يفتأ متعلقاً بالطفل أشد من تعلقه بآله وذويه

فلما زارني « فيني » مع أبيه بعد شفائه ونجاته من خطره كان المعقول المنظور أن يخف « بيجو » إلى الأب الكبير الذي يعني بإطعامه وإيوائه ، ويشمله بمودته وحبائه ، ولكنه التفت أول ما التفت إلى « فيني » العزيز دون غيره ، وتهافت عليه يعانقه ويلحس وجهه بلسانه ويئن أنيناً من فرط حنينه وفرحه ؛ وجهدنا جهداً شديداً في التنحية بينه وبين مولاه الصغير لفرط ما أرهقه بتحياته ومجاملاته ، وكنا سبعة منا أستاذ في علم الزراعة والحيوان ، وأخ له أديب جم الاطلاع ، وصديق مهذب من أدباء الموظفين ، وسيدة انجليزية وابنها اليافع ، ووالد فيني وكاتب هذه السطور ، فأتعبنا الكلب الأمين الودود جد التعب ونحن نبعده من هنا فيرجع من هناك على حال من اللهفة والاشتياق تجلب الدمع إلى الآماق . فماذا بين بيجو ومولاه فيني من البر والمجازاة غير الصلة النفسية التي لا شأن لها بالطعام والشراب ؟ ولماذا يحسب

نفسه تابعاً للطفل ولا يحسب نفسه تابعاً لأبيه ؟ إنه لايفقه أنهم أهدوه إلى فيتي الصغير ليكون لعبته وحارسه وعشيره ، ولكنه قد يفقه أنه نده وقرينه بواشجة الطفولة والملاعبة الصبيانية ، وهى على كل حال واشجة غير وشائج المنافع والطعام والشراب

ويشبه هـذا فى الدلالة على إدراك الخلائق العجماء للصلات النفسية أن « بيجو » لايطيق « الطاهى » احمد حمزة ولا يرتاح إلى رؤيته ولا يسمع النـداء على اسمه حتى يحسبه تهديداً له بالعقوبة والإقصاء ، وهو مع هذا يألف فراش المنزل « محمدا » ويهش له ويستريح إلى مصاحبته فى المنزل وفى الطريق ... فلم كانت هذه التفرقة عنده بين هذا وذاك ؟ ؟ كلاهما يقدم له الطعام ، ويزيد صديقه « محمد » بتجريعه الدواء الذى يتعاطاه لعلاج السعال أحياناً وهو يمقته وينفر منه أشد النفور . غير أن الطاهى « احمد حمزة » يتحاشى « بيجو » خوفاً من النجاسة فيشعر « بيجو » بجفائه ويلقاه بمثله ، ويحتمل التجريع والغصص من زميله لأنه يحتفي به ويأنس إليه

من إدراكه « للمعانى » الفكرية أنك إذا لمسته بالعصا وهو غافل عن رؤيتها فهو لا يبالى ولا يحفل ولا يحسبك غاضباً أو قاصداً لعقابه ، ولكنه إذا التفت إليك ورأى أن العصا هى عصا التأديب التى تخوفه بها ظهر عليه الرعب ، أو ظهر عليه الأسف والتوسل ، كأنه يقرن بالعقاب معنى غير معنى الضرب وألمه ، وهو استياء سيده وإعداده له عدة العقاب

***

والخلاصة أن « بيجو » مخلوق مفيد ومخلوق أنيس ، وهو أفيد ما يكون فى المكتبة التى يبغضها ويستثقل ظلها ، لأننى استفدت على يديه فوائد جليلة وأنا أقرأ بعض الكتب الحديثة فى علم النفس وعلم الاجتماع

يقول علم النفس إن التعاطف فى التربية والتعليم أنفع وأنجع من تبادل الأفكار ؛ وبيجو يؤكد لي ذلك ، لأننى أرى منه أن الكلاب أسرع تعلماً من القردة ، وهى أرفع فى مرتبة التكوين والادراك ؛ وإنما فاقت الكلاب القردة بسرعة التعلم لأنها عاشرت الانسان طويلا فاتصلت بينه وبينها العاطفة وإن لم يتقارب بينه وبينها تركيب الأعصاب والدماغ

ويقول علماء الاجتماع من أنصار « الفاشية » إن الغرائز لا تتبدل ، وإن الحرب والعدوان غريزة الانسان ، فلا فائدة لوعظ الواعظين بالسلام ، ونصح الناصحين بالأخاء والعدل والمساواة . وبيجو يدحض ذلك أيما ادحاض ، لأنه قد تحدر من سلالة الذئاب فما زالت به التربية والمصانعة حتى أصبح حارس الأطفال والحملان ، وقد كان قبل ذلك آفة كل طفل من بنى الانسان ، وكل صغير أو كبير من أبناء الضأن

ويعد « بيجو » بحق من أحسن الشراح للعالم الروسى العظيم « باڤلوف » صاحب التجارب المشهورة فى اخوان بيجو من الكلاب الروسية ... فانه جرب أن الكلب يسيل لعابه إذا شاهد الطعام ، فقرن بين تحضير الطعام له ودق الجرس على مقربة منه ، فاذا بفمه يتحلب كذلك كلما دق الجرس ولو لم تصحبه رؤية طعام ؛ فبنى على ذلك مذهبه فى مقارنات العواطف ومصاحبات الشعور وظواهره الجسدية . وجاء علماء النفس والتربية فاستفادوا من ذلك فوائد شتى فى علاج الخوف والجشع والعادات الذميمة التي يصعب علاجها فى بعض الأطفال ، فجعلوا يقرنون الشيء المخيف بالشيء المحبوب ليعودوا الطفل أن يسكن إليه ولا يخشاه ، ويقرنون الشيء المرذول الذى يحبه الطفل بالشيء المزعج الذى يصده عنه وينفره من إتيانه ، ليقلع عن ذميم الخلال بداهة وعفواً بغير أمر ولا إلحاح

بيجو خير مفسر لهذا المذهب النافع الذى كان الفضل الأول فيه لواحد من أبناء جنسه ، فقد عهدته فى منزله الأول وليس أبغض إليه من السلسلة والطوق ، لأنهم كانوا يقيدونه بهما فى حديقة الدار كلما أضجرهم بعبثه وفضوله . فلما جاء عندى وليس للمنزل حديقة واسعة أطلقه فيها أصبحت السلسلة والطوق من أحب الأشياء إليه وأدعاها إلى طربه وابتهاجه ، لأنه تعود كلما ربط بالسلسلة والطوق أن يخرج مع الخادم لغشيان الطريق وقضاء ساعته المنذورة للمرح والرياضة فى الخلاء !

ولبيجو فنون أخرى يشارك فى تفسيرها وتفهيمها ، وفضائل شتى يتبرع بهداياها ومزاياها ، وإن فى بعض هذا لما هو حسبنا من تقدير للأستاذ بيجو والصديق بيجو والزائر الكريم بيجو ... الذى نخشى أن نسطو عليه ، لفرط ما نستفيد منه ونأنس إليه

عباس محمود العقاد

فى أى عصر تعيش مصر؟

للدكتور محمد البهى قرقر

لكل عصر من عصور التاريخ التى حصل فيها انقلاب تطورى للشعوب والعقل الانسانى على العموم ، طابع خاص يتميز به عن غيره . ومن أهم تلك العصور التى كان لها حدث تاريخى عظيم فى ذلك الانقلاب وخصوصاً فى نشأة الدول وتطور النظم الحكومية عصر القرون الوسطى والعصر الحديث .

فالاستبداد أى قيام طائفة بعينها بالحكم فى الرعية وادعاؤها أنها وحدها هى التى تصلح للحكومة والمختارة للسيادة - ظاهرة من الظواهر التى تكوّن طابع عصر القرون الوسطى . فهذه الطائفة كانت ممثلة فى رجال الكنيسة ، وكان مصدر اختيارها على حسب زعمها هو الله، وحكومتها تعرف فى التاريخ السياسى بال Hierarchie

وهناك ظاهرة أخرى لا تقل عن سابقتها شأناً فى تكوين هذا الطابع ، وهى ظاهرة التمسك بالنصوص القانونية والجمود فى تنفيذها ولو كان في ذلك التضحية بالمصالح الحيوية للرعية وعدم التمشى مع ما تتطلبه العدالة العامة التى هى الغرض المقصود من أى قانون وضعى أو مصبوغ بالصبغة الدينية ، وهذه الظاهرة تعرف فى تاريخ التطور العقلى بال Dogmatismus

وكون تلك النصوص فى هذا الوقت كانت لها صبغة دينية لا يغير من قيمة هذه الظاهرة ولا من كنهها وهى التمسك بالنصوص القانونية من حيث هى نصوص ، كما أن كون الطائفة الحاكمة كانت من القساوسة وأرباب الكنيسة لا يبدل من حقيقة الظاهرة الأولى وهى أن الحكم كان استبداديا ، إذ اتصاف الطائفة التى حكمت والنصوص القانونية التى سادت فى هذا العصر بالوصف الدينى لا يدل إلا على مصدر حكم السلطة التنفيذية ، وإلا على مصدر التشريع ، كما أن الوصف بالديمقراطية فى العصر الحديث لا يعين أكثر من أن مصدر الأمرين جميعاً هو الأمة . أما كون القانون فى ذاته أو الحكومة فى نفسها عادلة أو غير عادلة فليس بضرورى أن يكون مرتبطا ارتباطا تاماً بالمصدر ، وإنما هو شىء آخر سبيل معرفته الناحية العملية فى الحياة الإنسانية ، وكونه طبق مصالح الأغلبية من الرعية أو ليس على وفقها . فقد يكون مصدر الحكم جمعياً ، وهو الأمة مثلا فى الحكم الديمقراطى والذى هو مظنة العدل ، ومع ذلك لا يكون طبق مصلحة السواد الأعظم من الشعب ؛ وقد يكون فرديا كما فى الحكومة الاستبدادية والتى هى مظنة الجور ، وبالرغم من هذا يكون وفق ماتتطلبه المصلحة العامة فى الأمة ، إذ الواقع أنه فى الحكم الديمقراطى قد لا تمثل الحكومة فى أسلوب الحكم رأى الأكثرية وإنما تمثل قوة الزعيم الشخصية التى تمكنه من الاستيلاء على نفوس الأغلبية ، أو الضعف النفسى للأغلبية الذى يجعل قيادها سهلا والتحكم فيها أمراً هيناً

وسواء اعتمدت تلك الطائفة حقاً فى حكومتها وفى تعلقها بالنصوص القانونية على المبادىء الصحيحة للدين المسيحي أم على تعاليم الكنيسة [1] أي تعاليم تلك الهيئة التى تمكنت باسم الدين وهو هو دائما الوسيلة القوية فى تملك الشعور الإنسانى ، من سيادة ارستقراطية دامت مدة طويلة ، سواء أكان هذا أو ذاك فذلك بحث آخر خارج عما أريده هنا .

وهناك أيضاً ظاهرة ثالثة كانت أيضاً من مكونات طابع عصر القرون الوسطى، وهى اتجاه التعليم نحو الناحية الدولية International وغايته التى كانت تقصد إلى الانسانية المحضة Homanität . وربما نشأت هذه الظاهرة من تلون الحكم والنصوص القانونية بلون دينى فى ذلك الوقت ، لأن الدين لا يعرف جنساً من البشر بعينه ولا يقصد إلى تهذيب أمة لكونها أمة مخصوصة ، وإنما لكونها جماعة إنسانية ، ولعلها كانت نتيجة لرغبة تحقيق الفكرة الامبراطورية للكنيسة . وتحقيق مثل هذه الفكرة يتأثر تأثراً سلبياً بالدعاية لمبدأ التعليم القومى

فالأمة الانكليزية مثلاً فى العصر الحديث — وكذا كل أمة لها سياسة استعمارية عالية — تعلم [2] الناشئة فيها سياسة الحكم الامبراطورى والعمل لأداء «رسالة» إنجلترا فى الامبراطورية

(١) يؤيد هذا الرأى الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel فى كتابه فلسفة التاريخ صفحة ٤٠٧ — ٤٢٨ طبعة Reklem فى ليبنج Pliosoplie den Leschichte

(٢) للاستاذ Von Weise العالم الألمانى تقرير عن حالة التعليم فى انجلترا نشرته إحدي جرائد ألمانيا الكبرى Femdenllatt في الأعداد التى صدرت من تاريخ ١٢ يونية ١٩٣٧ — ١٧ منه تحت عنوان :

Eryiehmg zur Lady, Erzielung zum Jentleman

وخلاصة التقرير أن انجلترا تعتبر أشد الأمم تعصبا فى التربية القومية والنزعة الجنسية .

الانكليزية على يد رجال الشعب الانكليزى وحدهم ، وهى تربية قومية محضة ، ولكنها فى الوقت نفسه تعلن خارج بلادها وفى حدود امبراطوريتها تأييد التعليم الدولى وأن الغاية منه بلوغ الكمال فى الانسانية ، لأن ذلك من الوسائل السلمية لضمان بقاء الاستعمار وضغط الشعور القومي فى البلاد الخاضعة لها من طريق ظاهرة المحبة والاخلاص

أما القانون الخلقي لهذا العصر فكان العمل للسلام الانساني والاعتراف لكل من القوى والضعيف والمفكر والأبله وغير هؤلاء من نوعى الانسان بالتمتع بالحياة كاملة على حد سواء . وربما كان ذلك نظريا فقط لأن حوادث التعذيب التى تنسب إلى الجهة العليا يومئذ أى إلى الكنيسة ضد العلماء يصح أن تكون دليلاً على أن السلام الذى كان يعترف به كمبدأ خلقى كان يقصد به عدم إثارة أي نزاع ضد الطائفة الحاكمة وهى الطائفة المنتخبة من الله والموكلة بأمره فى الخلق

وهكذا اليوم مثلاً دعوة السلام التى تُقرر كمبدأ سياسي دولى والتى تذيعها جمعية عصبة الأمم فى كل يوم وكل مناسبة ليست إلا أمراً نظريا يقصد منه ترك القوى يتمتع بسيادته على الأمم الضعيفة فى أكبر قسط من الراحة وهناءة البال دون أن تزعجه مطالبها القومية ورغبتها في الاستقلال بالسيادة

والعصر الحاضر يتمتع بطابع مخصوص تنم عنه جملة ظواهر تكاد تكون على الضد من الظواهر السابقة

فالديمقراطية ، أى كون الشعب هو الذي يباشر حكم نفسه بالأسلوب الذى يختاره : بالأسلوب البرلمانى أو الشيوعى أو الفاشستى تكوّن جزءاً كبيراً من هذا الطابع

كذلك سياسة الواقع Politik der Realitït ومراعاة المصالح القومية nationale Interense ظاهرة أخرى لهذا العصر. وقد تكون هي وحدها محور المشاكل الدولية اليوم ، والسبب الرئيسى فى شل عصبة الأمم وإظهارها بالمظهر الخيالى الذى يتضاءل أمام الحقيقة ، فضلا عن أنها منذ خلقت لم تكن إلا حلماً لذيذاً للأمم الضعيفة ، وستاراً ولكنه شفاف ، يكشف دائماً عن مقاصد القوى وسياسته ذات الوجهين

ولعل من سياسة الواقع واتباعها رفض نظرية التعليم الدولى وبناءه على الأسس القومية وتوجيهه نحو الصالح الوطني ، واستبدال الغرض «الوطنى» بالآخر الانسانى . وهذه ظاهرة أخرى توضح طابع هذا العصر

أما قاعدته الخلقية فهى تحقيق مبدأ تنازع البقاء والاعتراف بأن الصالح للحياة هو القوى والأصلح المنتج . ولعل الايمان بهذه القضية الخلقية نتيجة للشعور الوطنى الذى ساد الأمم والدويلات ، وتمكن من نفوس الجماعات البشرية المختلفة فى الجنس والعادات واللغة . فإحساس كل أمة بوجوب استقلالها وخضوعها لسيادتها الذاتية فحسب أذكى قوة النضال فيها وحفظها من التوزع داخل الأمة فى مكافحة الأحزاب السياسية الوطنية بعضها بعضاً ثم صوبها نحو الخارج : أي أن كل أمة وجهت قوة الكفاح نحو الأمم الأخرى دفعاً لما عساه أن يحدث من خطر يذهب بسيادتها الذاتية . ومن النتائج الضرورية للكفاح بقاء القوى واستمرار تمتعه بالحياة . وهو حادث طبيعى ؛ غير أنه أخذ فى العصر الحديث صفة خلقية(١) ونال استحساناً عقلياً وتأييداً عملياً ، وهذا هو الذى جعل تلك القضية الخلقية من مميزات هذا العصر

أما الدعوة إلى السلام العالمي الذى ينادى به نظام جنيف ، والذى ربما يتنافى فى الظاهر مع إقرار مبدأ تنازع البقاء إقراراً خلقيا ، فهى دعوة مدخولة وأقرب إلى الخديعة منها إلى نداء إنسانى عام يرجى من ورائه سعادة الجماعة البشرية ، لأن القائم بها يفهم من السلام العالمي ترك النائم في أحلامه واستسلام الضعيف لضعفه واستمرار المستعمر فى إذلاله ، بينما هو يمثل لديهم جميعاً دور الحكم الذى اختير للفصل من خالق العالم

تلك مظاهر العصرين ومنها يتكوّن طابعهما . فإذا نظرنا الآن إلى مصر ، إلى مركز النص القانونى وقيمته فيها ، وإلى نظامها الحكومى ، وإلى المبدأ الخلقى للسياسة العملية فيها ، وأخيراً إلى مبدأ التعليم واتجاهه ، إذا نظرنا إلى كل هذا فهل يمكننا أن نظفر بحكم قطعي على طابع الحياة فيها ؟ وهل يتهيأ لنا بصفة حاسمة أن نقول إن مصر تعيش فى وقتنا الحاضر ، أو فى عصر القرون الوسطى ، أو أنها لا تعيش فى كليهما ؟ وإذن فى أى عصر تعيش هي ؟

لنسترجع هذه الظواهر واحدة واحدة ونستعرضها فى مصر حتى يكون الحكم نتيجة صحيحة لمقدماته

---

(١) رأى الفيلسوف نيتشه فى كتابه Wille zur Nacht

أليست الـ Dogma والمبالغة فى تقديس القانون من حيث هو « نص » قانونى فقط هى التى تحمل على أن يقوم برياسة الوظائف الفنية الكبرى التى تحتاج إلى تخصص وخبرة تامة فى الفن كوظائف الصحة والتجارة والاقتصاد والمعارف ... — رجالٌ كل مؤهلاتهم أنهم درسوا القانون الجنائى أو القانون المدنى أو الدولى مثلاً ؟ أليس شأن هؤلاء كشأن القساوسة فى العصور الوسطى الذين ولوا الوظائف المدنية الفنيــة وليس لهم مؤهلات إلا أنهم من رجال الكنيسة ومدرسة القانون الدينى ؟

لماذا هذا الظلم وهذا الاجحاف الذى يصيب الفلاح سنوات وسنوات بسبب قانون تحريم تعديل ضريبة الأطيان قبل مضى ثلاثين سنة على وضعها أو تعديلها ؟ أهذا شىء آخر غير التمسك بالنص القانونى وإن ذهبت مصالح الشعب الحيوية ضحية ونُفِّذ الظلم في صورة « مشروعة » ، فى صورة قانون ؟

لماذا تُترك « العقبة [١] القانونية » تتحكم فى إنجاز مشروع مجلس المعارف الأعلى وهو المجلس الفنى فى أمور التعليم وفى سياسة البلد الثقافية سنوات عدة ولو سادت مع ذلك الفوضى فى تعديل برامج التعليم وذهب وقت الرئيس ، الرجل « القانونى » الذى يجب أن يكون وقته خالصاً لمصالح الأمة فى دراسة تكميلية فنية شخصية أى دراسة شئون التربية التى لاتغنيه عنها شيئاً دراسته القانونية ؟ أهذا أمر آخر غير التمسك بالنصوص القانونية من حيث هى نصوص فقط ؟

لماذا يضحى بالكفايات الشخصية في العمــل الحكومى ؟ ولماذا يسود هــذا القانون البيروقراطى قانون الوظائف الأوتوماتيك الذى يجعل المكافأة بالعلاوات على مدة الخدمة لا على نوعها ؟ وربما يقال إنه قانون عادل لأنه يحرم طريق الاستثناء ! ولكن لم لا تكون قاعدة الاستثناء هي الكفاية بدل المحسوبية ؟ ولم لا تجعل الجدارة الشخصية مع مراعاة الأقدمية بعض المراعاة مبدأً للترقية المادية ؟ أمن عدل القانون أن يحرم على الناس استخدام مواهبهم الشخصية فى المصالح العامة ؟ أمن عدله أيضاً أن يكوِّن من جماعات الانسان آلات أوتوماتيكية ، أومن عدله أن يشجع

(١) تحت هذا العنوان نشرت جريدة الاهرام في أحد أعدادها فى شهر سبتمبر سنة ١٩٣٧ أن سبب التأخير فى انجاز مشروع مجلس المعارف الأعلى هو عقبــة تتلخص فى أن مجلس الشيوخ وافق فى سنة ١٩٢٣ على المشروع بينما مجلس النواب لم يوافق عليه للآن ، وتنفيذ أى قانون مرهون بتصديق المجلسين معاً

الـكسل ويعترف له باستحسان شرعى ؟ أم ذلك كله هو التمسك بنص القانون من حيث هو نص فحسب ؟

لماذا يقدم رجل [١] إدارى — وكذا كل رجل صاحب نبوغ خاص يحمله دائماً على استقلاله فى تفكيره ويهىء له نضوجاً خاصاً فى قوة التميز بين العمل للمصلحة والطاعة « للنص » القانوني — من كبار رجالات مصر المصلحين الذين هم ثروة الأمة وذخيرتها إلى المحاكمة أمام هيئة عليا بحجة أنه نفذ إصلاحاً قبل تسلمه الرد بالموافقة من الوزارة المسئولة ؟ أيقدم مصلح للمحاكمة لأنه حول مستنقعاً كبيراً كاد يقضى على سكان عاصمة إقليم من أهم أقاليم الوجه البحرى إلى متنزه عام وشيد عليه معهداً للثقافة العقلية : مكتبة البلدية بدمنهور ، ودارًا أخرى لتلك الغاية على طراز آخر : سينما البلدية، وملعباً رياضياً لتقوية أجسام الشبيبة ومساعدتها على التمتع بالصحة فى الشباب والشيخوخة ، كل ذلك فى زمن وجيز وبإرادة نافذة ؟ أيقدم للمحاكمة لأنه عطف على الفلاح واعترف بنصيبه فى الحياة وباشتراكه فى معنى الإنسانية وبمركزه فى الانتاج الاقتصادى لمصر فاستعمل معه أسلوب اللين فى تحصيل الضرائب التي يدفعها للموظف الحاكم وفى الواقع لخادمه الذي يجب أن يكون تحت تصرفه ولمصلحته فى كل لحظة وبكل عناية ؟

ما ذنبه إذا كانت الجبهة العليا الحاكمة تجرى فى تنفيذها للمشروعات على أسلوب بيروقراطي وتتمسك « بنص » قانونى كم ذهبت مصالح حيوية ضحية له . وكم دام إنجاز بعض المشروعات الهامة سنوات طويلة وقد كان لا يستغرق أكثر من أشهر معدودة لو فهمت الروح القانونية . أليست فكرة معاقبة رجال الإصلاح على هذا النحو هى فكرة الكنيسة فى القرون الوسطى ضد من كان يريد أن يحكم عقله مرة مافى فهم النصوص القانونية ؟

هل يفهم الانسان شيئاً آخر سوى تحكم النص القانونى وحده إذا عرف أن أحد الـكنستبلات المالطيين فى بوليس الأسكندرية أعيد للخدمة ثانية بعد عزله وفقاً لنص المعاهدة ، لأنه تجنس بالجنسية المصرية ؟ إننى أعرف رجلين من الأرمن هنا فى هامبورج تجنسا بالجنسية المصرية . أنا لم أدهش من شعور أحدهما يوم قابلنى فى سنة ١٩٣٥ فى وقت اشتدت فيه حركة الطلبة بالقاهرة للحصول على غرض شريف : للحصول على دستور سنة ١٩٢٣ . إنه لم

(١) صاحب السعادة الاستاذ عبد السلام الشاذلي باشا

يستحح أن يجرح عاطفتي الوطنية إذ يفاجئني بقوله : ماذا يقصد هؤلاء الطلاب أولاد العرب من حركتهم هذه ؟ ألا يستحون من مطالبة بريطانيا بالتخلي عن حكم مصر ؟ ألم يفهموا للآن أنها تمدنهم وتحد من همجيتهم ؟ لم أدهش حقاً لهذا لأني أعلم أن تجنسه بالجنسية المصرية لا يمكن أن يكيف شعوره بكيفية مصرية مهما حاول ذلك ، كما لم أدهش منه يوم قابلني هو بعينه في شهر يونيه الماضي وجعل يردد لى حبه وتعلقه بمصر وفخره أنه يحمل على صدره العلم المصري ، لأني أعلم أيضاً أنه يستتر وراء هذا العلم من مطاردة بعض أفراد النازى هنا له ، لأن سحنته يهودية ولأنه هو وأخاه من التجار الأجانب الذين هم تحت مراقبة البوليس لسوء سمعتهم الأخلاقية واتباع حيل اليهود الدنيئة في كسب الربح

ولو سوّغ التجنس بالجنسية المصرية لهذا المالطى حقوقاً أخرى سياسية لما كان ينبغى أن يجيز له مباشرة عمل متصل بنظام الأمة الداخلى ، ولكنه « النص » القانونى الذى لا يفرق بين مصرى ومتمصر له من الطبائع النفسية وطرق التفكير ما يبعده أشد البعد عن طبيعة المصرى أو العربى المتمصر مثلا ؛ والسلوك العملى للانسان خاضع لطبائعه النفسية ونوع تفكيره

وغير هذا من الحوادث كثير . فاذا ذهب من يريد الاسلام عن اقتناع لا عن محاولة وإكراه إلى قنصلية مصرية فى الخارج ليسجل إسلامه فيها كهيئة رسمية تمثل أمة إسلامية تحتل المكان الأول بين أمم العالم الاسلامى لم يصل إلى غايته ، لأن نص القانون المصرى يحرم ذلك تجنباً لإشكال دولى بينما يبيح أعمال التبشير الإكراهية فى مصر المسلمة التى يقول عنها الأستاذ المراغى إنها سرقة أرواح واغتصاب نفوس عملاً بحرية الأديان . ولكنه النص القانونى

بجانب هذه الظاهرة : ظاهرة التمسك بالنص القانونى التى هى إحدى ظواهر عصر القرون الوسطى ، نجد ظاهرة أخرى من ظواهر العصر الحاضر وهى الظاهرة البرلمانية التى لا تبيح استبداد الفرد أو الطائفة الارستقراطية بالحكم . ولكن بالرغم من وجود هذا النظام الشكلى فان أهم مكونات طابع العصر الحاضر لا يجدها الباحث إذا فتش عنها فى مصر الحديثة

فالسياسة العملية السائدة اليوم في مصر ليست سياسة الواقع ومراعاة المصالح الوطنى ؛ وغاية التعليم ليست قومية وطنية بل دولية بكل معانيها ، إذ أعز أمانى مصر الحديثة خدمة « الانسانية » والعمل على تلاشى الفوارق الطبيعية قبل تكوين أمة مصرية يشعر كل فرد من أفرادها بأن عليه واجباً نحو نفسه ونحو وطنه . كما أن النظرية الخلقية التى تلقى استحساناً عند الطبقة الحاكمة والتى تشبعت بها نفوسهم هى تأييد السلام العالمي الموهوم ، والعمل لقضية السلام ، والافتخار بالاشتراك فى جمعية المحافظة على السلام الدولية التى قضى عليها بالموت منذ خلقت

فأنا لا أدرى إذا كانت مصر تعيش في القرون الوسطى لهذا المظهر السائد اليوم : مظهر التمسك بالنصوص القانونية ولو كان فيه التضحية بالمصالح الحيوية وعدم تحقيق معنى العدالة . ولكن المظهر البرلمانى يحول دون الحكم بذلك ، لأن مظهر السلطة فى ذلك الوقت كان استبدادياً قاصراً على الطبقة المختارة من الله

أم أنها تعيش في العصر الحاضر لوجود هذا المظهر الشعبى ؟ ولكن سياستها ليست سياسة الواقع ومراعاة المصالح القومية كما أن أسلوبها فى التعليم هو الأسلوب الدولي ، وقاعدتها الخلقية ليست إقرار مبدأ تنازع البقاء

أم أنها تعيش فى كلا العصرين ؟ ولكن محال على أمة فتية رشيدة تسير فى طريق التطور الطبيعى أن تجمع حكومتها بين الأضداد . وإذن لابد أن تكون ظواهر أحد الطابعين خادعة

وأغلب ظنى أن مصر لم تدخل بعد فى العصر الحاضر صاحب الطابع الوطنى ؛ ولكنها تقطع الآن الفترة السابقة له ، وهى فترة مملوءة بالأخطار الجسيمة التى تمس حيوية الشعب ، فترة الحرية الكاذبة التي تطغى على كل ناحية من النواحى العقلية والخلقية وتتجاوز الحدود الطبيعية ، فترة الرغبة في التخلص مما يسمى « قديماً » ـ وخير الوطن فى التمسك به ـ والنزوع إلى الجديد المبهم غير المحدود الذى تلوكه الألسن ولا تفهمه عامة الشعب بل وكثير من خواصها ـ وهو لهذا خطر ـ فترة التحرر Liberalismus

فإذا قوى فى الأمة شعور التمسك بالوطن وبالقديم ؛ وقوى الشعور بالمحافظة على ما كان للأمة والاعتزاز به فى أية ناحية ، كان ذلك ابتداء الحياة فى العصر الحاضر

محمد البهى قرقر
دكتور فى الفلسفة وعلم النفس
وعضو بعثة الأستاذ محمد عبده

في تاريخ الجمعيات السرية

١ – طائفة سرية عجيبة

تعيش في عصر المدنية بأساليب همجية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قامت الجمعيات والطوائف السرية في جميع العصور والمجتمعات وتنوعت مبادئها وغاياتها الدينية والسياسية والاجتماعية ، ولعبت مختلف الأدوار في تكوين الآراء والعقائد ، وذهبت في الغلو والإغراق كل مذهب ، وتركت آثارها في جميع الأمم والمجتمعات التي قامت بها

ولكن التاريخ لم يسجل في صفحاته السرية الحافلة سيرة أغرب وأروع من سيرة جماعة سرية من البشر الهائمين اصطلحوا على التوسل لتحقيق مبادئهم الروحية المزعومة بتشويه الانسان وتعطيل مهمته الاجتماعية بطريقة بربرية اعتبرت في جميع الأمم والعصور وحشية مثيرة تطاردها الأمم المتمدينة بمنتهى الشدة والصرامة . تلك هي « طائفة المجبوبين » (سكوبتسى Skoptsy) السرية التي قامت في روسيا في أواسط القرن الثامن عشر ، ولا تزال قائمة حتى اليوم ، والتي تعتبر الجب وسيلة النقاء من الدنس وطريق الخلاص الأبدي من آثام هذه الدنيا

ولقد عرف التاريخ منذ أقدم العصور أمثلة من هذا النوع اعتبرت فيها هذه الوسيلة الهمجية ضرباً من التضحية السامية التي ترتفع بصاحبها إلى مراتب التقديس ، وظهرت بين بعض طوائف الرهبان في أوائل عصور النصرانية ، وذاعت حيناً بين رهبان الكنيسة الشرقية ، ولكنها كانت دائماً مثار الإنكار من الناحيتين الدينية والإنسانية

وعرفت معظم العصور والأمم طوائف الخصيان والمجبوبين من العبيد والخدم ، وعرفتها المجتمعات الحديثة حتى أواخر القرن الماضي ، ولكن طوائف الخصيان كانت تحشد دائماً من الرقيق بسائر أنواعه ؛ وكان نظام المجتمع منذ فجر التاريخ قائماً على التفرقة بين طوائف المجتمع ، وكان الرق مشروعاً في هاتيك العصور ، وكان الرقيق متاعاً مباحاً تجري عليه سائر التصرفات ، وكان الخصي أو الجب وسيلة بربرية لإعداد طوائف من الحشم تمتاز بصفات خاصة تؤهلها لخدمة القصور والبيئات الرفيعة ؛ وقد استطاعت طوائف الخصيان أن تشق طريقها إلى السلطة والنفوذ في مواطن كثيرة ؛ ولكنها كانت تعتبر دائماً من الناحية الاجتماعية من الطبقات الدنيا ، وكان ينظر إليها دائماً في كثير من الرثاء والاشفاق لأنها تعاني حالة اجتماعية منافية للأوضاع الإنسانية الطبيعية

ولكن المجتمعات المتمدنة تنكر اليوم الرق وتعتبره ضرباً من ضروب الهمجية الذاهبة . وتعتبر القوانين المحدثة الخصي أو الجب من أشنع الجرائم التي يمكن أن تقع على إنسان ، وتعاقب مرتكب هذه الجريمة الشائنة بأقسى العقوبات ، بل تعاقبه بالاعدام كالقاتل العمد سواء بسواء

ومع ذلك ففي قلب أوربا المتمدينة تقوم إلى اليوم تلك الطائفة السرية العجيبة طائفة « سكوبتسى » Skoptsy وشعارها تلك الجريمة المثيرة جريمة الخصي أو الجب كوسيلة إلى السعادة الروحية والخلاص الأبدي

***

وترجع الرواية قيام هذه الطائفة السرية إلى أواخر القرن السابع عشر على يد فلاح يدعى دانيلو فليبوف ؛ ولكنها عرفت يومئذ بجماعة « أهل الله » ، وتزعم الرواية أن دانيلو هذا ألقى ذات يوم جميع الكتب المقدسة في نهر « الفولجا » وقال إنه لا يوجد كتاب يحقق سلام الروح الأبدي سوى الروح القدس ذاته ؛ ثم صعد إلى الجبل مع نفر من أنصاره ، فنزلت عليه سحابة من النور ، ونفذ إليه الروح القدس ؛ وزعم أنصاره أن الاله قد مثل في شخصه على مثل ما يزعم الدروز بالنسبة لشخص الحاكم بأمر الله

وتتلخص تعاليم فليبوف فيما يأتي : إن الاله الذي بشرت به الأنبياء نزل إلى الأرض لينقذ أرواح البشر ؛ وليس ثمة من إله غيره ، ولا تعاليم غير تعاليمه ؛ وعلى المؤمنين أن يطيعوه ، وألا يشربوا الخمر ، وألا يرتكبوا الزنا ، وألا يتزوجوا ؛ وعلى من تزوج ألا يقرب زوجته ؛ وعليهم ألا يسرقوا ، وأن يحتفظوا بسر تعاليمه ، وأن يحب بعضهم بعضاً ، وأن يؤمنوا بالروح القدس .

وتبنى فليبوف بعد ذلك فلاحاً آخر يدعى سوسلوف وزعم أنه هو ابنه المسيح ، واختار سوسلوف له اثنى عشر رسولا ، وتوفى سنة ١٧١٤ ، ودفن فى أحد الأديار

وبعد وفاة سوسلوف تمثلت روح المسيح على زعمهم فى شخص لوبكين وهو جندى من فرقة الاسترلتزي ؛ وعلى يديه انتشر مذهب الطائفة فى كثير من الأديار بين الرجال والنساء معاً . ولما استفحل أمره قبض عليه وأعدم سنة ١٧٣٢ وأخرجت جثته فيما بعد وذر رفاته في الهواء ؛ وقبض على كثيرين من أشياعه وحوكموا بتهمة المروق والكفر ونفى كثيرون منهم إلى سيبريا ؛ ولكن هذه المطاردة لم تخمد من حماسة أولئك الكفرة المتعصبين فاستمروا يبثون مبادئهم فى الخفاء ، ويتعاقب في زعامتهم مسيح بعد آخر ؛ وكانوا يقيمون شعائرهم سراً فى جوف الليل فى بعض الضياع أو الأنحاء المهجورة ، وفى أواخر القرن الثامن عشر تطورت مبادىء الطائفة وتوسع بعض دعاتها فى تفسير تعاليم فليبوف ، وقال إن الزواج المحظور هو الزواج الكنسى فقط وأن « الأخ » يستطيع أن يتصل بأخته اتصالاً روحياً ؛ ولم يلبث أن ذاع بينهم الاختلاط الجنسى الحر ، وكان هذا الاختلاط يتخذ أحياناً صوراً مثيرة ، فتعقد جماعاتهم بالليل ، وتنتهى شعائرهم المزعومة بمناظر مروعة من الفجور والفسق

وكانت هذه نقطة التحول فى مبادئ طائفة « أهل الله » : ذلك أن فريقاً من المؤمنين رأى فى هذه الحياة الجنسية الشائنة خروجا على تعاليم فليبوف التى تحتم التزام الفضيلة والعفة ، ورأو فى « الجب » خير وسيلة للتخلص من الشهوات والموبقات الآثمة ؛ ومن هنا ظهرت طائفة « المجبوبين » (السرية سكوبتسى) واكتشفت السلطات الضحايا الأولى لهذه الدعوة البربرية فى سنة ١٧٧٢ فى مقاطعة أورمل ؛وظهر من التحقيق الذى أمرت الامبراطورة كاترين باجرائه أن الدعاة يزعمون أنهم يرسمون للبشر طريق الخلاص الأبدي ، وأنه يجب على المؤمن ألا يذوق الخمر ، وألا يماشر النساء ، ويجب على الفتيان والفتيات ألا يتزوجوا ، كما يجب على المتزوجين أن يضربوا عن الاتصال الجنسى ؛ وظهر أيضاً أن الدعاة استطاعوا أن يؤثروا على كثيرين من الفلاحين ، وأن يحملوهم على قبول الخصى أو الجب المطبق تحقيقاً للعفة والسعادة الأبدية . ولم تستطع السلطات يومئذ أن تظفر بزعيم الطائفة الحقيق ؛ ولكن ظهر فيما بعد أنه فلاح يدعى سلفانوف ، وهو فتى فى الثلاثين من عمره ، هادئ المزاج ، كثير التأمل والهيام ، عارف بالقراءة والكتابة وهوما كان يندر فى ذلك العصر ؛ وكان يبشر بدعوته بعبارات صوفية غامضة ؛ وكان من زعماء « أهل الله » ولكن راعه ما رآه من ذيوع الفسق بين المؤمنين ، فبدأ دعوته ضد « السحر » النسوى أصل كل بلاء وإثم ، وأخذ يدعو إلى « النقاء المطلق » ؛ وهذا النقاء لايتحقق فى رأيه إلا بمجانبة كل بواعث الضعف ولا سيما الاغراء الجنسى ، والكبرياء ، والأنانية ؛ ولا سبيل إلى تحقيق هذا المثل الأعلى إلا « بقتل الجبة » أو بعبارة أخرى إعدام الأعضاء الجنسية والتخلص من آثامها

« هكذا نشأت طائفة « المجبوبين »(سكوبتسى) ، واستطاع سلفانوف أن يحشد حوله جماعة من التلاميذ والأشياع معظمهم من الفلاحين البسطاء ؛ ولم تكتشف السلطات أمره إلا فى سنة ١٧٧٥ إذ قبض عليه وجلد وعذب مراراً ، ثم نفى إلى سيبريا ، وقبض على كثيرين من أشياعه المجبوبين ، وجلدوا ، وحكم عليهم بمختلف العقوبات

ولكن الدعوة البربرية لم تخمد مع ذلك ، فحملها تلاميذ سلفانوف ورفعوه إلى مرتبة التقديس وأسموه « بالمنقذ » وجاوزت الدعوة طبقة الفلاحين إلى الطبقات الأخرى ، فانتظم فى سلك الطائفة جند وتجار وغيرهم خضعوا جميعاً لهذا التشويه الهمجى ؛ وزعموا أخيراً أن سلفانوف هو الانسان الوحيد الذى مثلت فيه روح المسيح ، وأنه سيعود قريباً . أما سلفانوف فلبث يرسف فى منفاه فى أركوتسك زهاء عشرين عاماً ، ثم استطاع الفرار أخيراً ولم تهتد السلطات إلى أثره

وفي العام الثانى ظهر فى قرية بيخوفو على مقربة من موسكو شخص يرتدى أسمالاً بالية ، وقد حزم بطنه بسلاسل من الحديد وبدت عليه آثار السقم والورع ؛ فالتف حوله بعض الفلاحين ، وكان يصلى بينهم بلغة مجهولة ؛ ولم يمض سوى قليل حتى ظهرت معجزاته إذ استطاع أن يشفى امرأة مريضة ، وأن يحول الخمر إلى ماء ؛ وفى ذات يوم أخذ يتكلم بالروسية وزعم أنه القيصر

« بطرس فيدروفتش » ولم يكن هذا الدعي سوى سلفانوف نفسه ، رأى فى حوادث البلاط الروسى يومئذ منفذاً جديداً لدعوته ؛ والقيصر بطرس فيدروفتش أو بطرس الثالث هو زوج الامبراطورة كاترين ، وقد توفي سنة ١٧٦٢ فى ظروف مؤسية غامضة ، واتهمت زوجه بتدبير مصرعه لأنهما كانا على خلاف دائم ؛ وكان القيصر مصاباً بالضعف الجنسى ، وكانت زوجه تبغضه وبغضها لفجورها ؛ ولكنه كان محبوباً من بعض طوائف الشعب لنزعته الحرة وخلاله الرقيقة ، وكان من مآثره التى زادت فى حبه أن أفرج عن آلاف عديدة من المنفيين لأسباب دينية ؛ فلما توفى على هذا النحو الغامض ذاعت حول وفاته أقاويل وروايات كثيرة ، وزعم كثيرون أنه لا يزال على قيد الحياة ، وقام أكثر من دعى ينادى بأنه القيصر بطرس ، ومن أشهر هؤلاء بوجاتشيف زعيم القوزاق الذى أثار الثورة حيناً فى مقاطعة الأورال ، ثم هزم وأعدم . واتخذت هذه الأسطورة على يد سلفانوف وأشياعه صبغة جديدة ، خلاصتها أن المسيح تمثل لآخر مرة فى شخص القيصر بطرس الثالث ، وأن أمه العذراء اليزابيث ولدته بمعجزة ثم تخلت عن العرش لوصيفة لها تشبهها كل الشبه ، وذهبت لتعيش بين « أهل الله » فى مقاطعة أوريل باسم الفلاحة آكولينا إيفانوفا . ولما كبر بطرس وزوج بالامبراطورة كاترين اكتشفت زوجه أن به عنة فاعتزمت قتله والاستيلاء على العرش من بعده ؛ ولكن بطرس علم بأمر هذه المؤامرة ، فترك العرش وغادر بطرسبرج « لكى يقاسى مع أهل الله » وقتل مكانه مجبوب يشبهه كل الشبه ؛ واختفى القيصر حيناً ثم قبض عليه ، وعذب كما عذب المسيح ، ونفى مدى عشرين عاماً فى مكان سحيق ، ولكنه استطاع أن يفر ، وأن يعود متشحاً بكل مجده وعلاه

تلك هى الأسطورة التى مزجها سلفانوف بشخصه ، وحاول أن يستغلها من الناحيتين السياسية والدينية ؛ ولكنه لم يلبث أن وقع فى يد السلطات مرة أخرى ، فقبض عليه فى موسكو سنة ١٧٩٧ ، وزج إلى دار المجانين فى بطرسبرج ؛ وأراد القيصر بول الأول (و هو ابن القيصر بطرس الثالث وكاترين) أن يرى ذلك الدعى الذى يزعم أنه أبوه ، فاستدعى سلفانوف إليه ، وجرت بينهما محادثة تنبأ فيها سلفانوف للقيصر بموت سريع عنيف . ولبث الدعى في سجنه طيلة حكم بول الأول ؛ وقبض أيضاً على تلميذه ورسوله « شيلوف » وسجن حتى موته وغدا قبره مزارا يحج إليه المجبوبون من سائر الأنحاء

وفي عهد القيصر اسكندر الأول تنفست طائفة المجبوبين الصعداء ، لأن القيصر الجديد كان ذهناً حرًّا فى معنى من المعانى؛ وفى عهده صدرت عدة مراسيم تحريرية ، ومنها مرسوم بالكف عن مطاردة المجبوبين « لأنهم بفعلهم الذميم قد عاقبوا أنفسهم بأنفسهم عقاباً كافياً » وعلى ذلك أطلق سراح المعتقلين منهم ، وانتدبت لجنة خاصة لبحث جميع المسائل المتعلقة بالطائفة ، وأفرج أخيراً عن سلفانوف بتدخل سيد بولوني من ذوي النفوذ يدعى الكسي اليانسكي ، وكان من المتصوفين الهائمين ، فاعتنق مبادىء الطائفة وكان أول أعضائها من خاصة المثقفين ، وقد لعب فيما بعد دوراً عظيما فى تطورها وتقدمها

وسنرى فيما يلي كيف عاشت هذه الطائفة السرية العجيبة خلال القرن القرن التاسع عشر عصر العلم والنور ، وكيف أنها لا تزال قائمة حتى يومنا فى ظل النظام البلشفي ، وفى قلب أوربا المتمدينة (١)

(للبحث بقية)

فينا فى أوائل اكتوبر

محمد عبد الله عنان

(١) انتفعنا فى هذا الفصل بالبحث المستفيض الذى كتبه المؤرخ فولكوف عن طائفة « سكوبتسى » وبما كتبه سخوملين فى مؤلفه بالفرنسية عن القضايا الروسية الشهيرة

الدمـــــام

Le bâton de rouge

لأستاذ جليل

اللعَس سواد مستحسن يعلو شفة المرأة أو سواد فى حمرة قال (التاج) : لعس كفرح لعسا ، والنعت ألعس وهي لعساء من فتية ونسوة لُعس : فى شفاههم — وشفاههن — سواد

وفى اللُّعس جمع اللعساء يقول الزمخشري : « إذا رأيتَ أبكاراً لُعْساً ، وعجائز قُعْساً[1] فقل : لعاً[2] وتعسا !!» قل: لعاً للأبكار اللعس ، وتعساً للعجائز القعس

نعم ما يوصينا به إمام عظيم فى اللغة والأدب ونحلة المعتزلة !

الحق أنّ شيخنا الزمخشري لا يستحى ...

فاللعَس هو صِبْغ الله ، صباغ الله ، « صِبْغَة الله ، ومن أحسنُ من الله صبغة ؟ »

ومن هوى كل من ليست مُموِّهةً
تَركتُ لون مشيبي غير مخضوب[3]

وإذا أحب محب أن يرشف ريق رَشوف[4] أو يَرُفَّ شفتيها[5] أو يترضبها[6] فإنه يرجع بخير ، إذْ ما فى صبغة الله إلا الطهر . وإن سمى حاسد أو عذول هـذا الرضاب بغير اسمه فقال : هذا بُصاق ! فليس ثمة ضير .

تقول : هذا مجاج النحل تمدحه　　وإن ذممت تقل : قيء الزنابير[7]

(١) القعس : نقيض الحدب

(٢) لعا : دعاء للعاثر بالسلامة

(٣) المتنبي

(٤) يرشف : بضم الشين وكسرها . الرشوف : المرأة الطيبة الفم يصلح لأن يرتشف

(٥) يرفهما : يرشفهما

(٦) ترضب المرأة : ترشف رضابها

(٧) فى (الوفيات) : أبو اسحق العراقي : أنشدنا شيخنا ابن الخل ولم يسم قائلا :

فى زخرف القول تزيين لباطله　　والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقولُ هـذا مجاج النحل تمدحه　　وإن ذممت تقل قيء الزنابير
مدحا وذما وماجا وزت وصفهما　　حسن البيان يرى الظلماء كالنور

وقد رفضت المترقشات[1] المتقيّنات[2] المتنمِّصات[3] المتّشمات[4] تلك الصبغة ، صبغة الله ، وركضن إلى صبغة العطار والصيدلانى فكان تبديلُ خلق الله وتصويره . وجاء من ذلك — من تلك الدواهى — هذا الوشم فى الجسم واليد والوجه واللثة والشفة . وقد « لعن الله الواشمة والمستوشمة » كما « لعن الله النامصة والمتنمصة » لكن الخبيثات ما يبالين لعناً ولا ذما ، ولا يحسبن للأخرى حسابا

كان وشم الشفاه فى القديم ، وجاءت اليوم هذه (الحمرة) فيها ، هـذا (الموت الأحمر[5]) وأمسى (التحمير) دين كل شابّة وتابّة[6] ...

وكأن أولئك الحور[7] العين الحسان الكواعب وهنَّ مقلات مدلاّت بجمالهن ، ذوات أبهة ، مزدهيات — فكأنهن والغات فى دماء صرعاهن ، صرعى عيونهن !

وكأنّ شفة الرجل بعد تلك الرّشفات خَطْمُ[8] ضار فى الفلا مفترس

إنه لما عمّت وطمّت هذه البلية التى « ليس لها من دون كاشفة[9] » وكنا من خدام هذه اللغة رأينا أن يوضع لها لفظة فكانت كلمة (الدِّمام[10]) المسماة فى الفرنسية Le bâton de rouge

فتقول — يازين النساء وطِلْبها[11] إن شئت أن تقول —

(١) ترقشت : تزينت

(٢) التقين : التزين بألوان الزينة

(٣) النامصة التى تنتف الشعر من وجهها والمتنمصة التي تأمر من يفعل بها ذلك (النهاية) والمنماص : المنقاش

(٤) المتشمة : طالبة الوشم ، أصلها موتشمة مثل المتصل أصله الموتصل (اللسان)

(٥) الموت الأحمر : الموت قتلا ، والأغبر الموت جوعا ، والأسود الموت خنقاً وغرقاً ، والأبيض الفجاءة

(٦) تابة : عجوز

(٧) الحور مفردها : حوراء ، وقد قال المولدون : حورية

(٨) الخطم من السبع بمنزلة الجحفلة من الفرس ، بمنزلة الشفة من الانسان

(٩) ليس لها نفس كاشفة أي قادرة على كشفها إذا وقعت ، وقيل : الكاشفة مصدر بمعنى الكشف كالعافية (الكشاف)

(١٠) للدمام معان ، جلها قل استعماله ، ومنها الحمرة التى تحمر بها النساء وجوههن ، وحسبها هذه الكلمة ، والدمام ظهيرها فى التحمير كما أنه منها

(١١) طلب نساء أى يطلبهن جمعه أطلاب

بين العلم والأدب

للأستاذ عبد الكريم الناصري

قرأتُ فى العدد (٢١٩) من « الرسالة » الغراء مقالة للأستاذ على الطنطاوى يقارن فيها بين العلم والأدب ، ويفاضل بينهما ، ويقضى في أمرهما ؛ فوجدته « لم يدع مذمّة إلا ألحقها » بالعلم ، « ولم يترك مزيّة إلا نحلها » الأدب ، كأنما « الأمر قد انتهى والقضية قد فصلت » وحكم للأدب على العلم « فلم أدر متى كانت هذه المنافرة ، وأين كانت هذه المفاخرة ، ومن هو الذى جلس فى منصة القضاء ، ومن الذى زعم أنه وكيل العلم حتى أخزاه الله على يديه ، وأذله به ؟ »

والذى لاحظته على الأستاذ وعجبت له أنه يتوسع فى مفهوم الأدب توسعاً كثيراً ، بينا يبخل بذلك على العلم ويضيّق معناه كل التضييق ؛ فهو يقول : « إن الأدب ضرورى للبشر ضرورة الهواء » « لأن البشرية لم تعش ساعة واحدة من غير أدب » ولكنها « عاشت قروناً طويلة من غير علم » ، وما هو إلا طفل ولد أمس ولا يزال يحبو حبواً » ... وذلك لأن الأدب بمعناه الواسع يشمل « كلّ ما كان وصفاً للجمال وتعبيراً عنه » فكلُّ « من يعنى بالجمال ويتذوقه ، بل كل من يذكر الماضى ويحلم بالمستقبل ويحس باللذة والألم واليأس والأمل يكون أديباً » ، ويكون الأدب — بهذا المعنى — مرادفاً للانسانية ، فمن لم يكن أديباً لم يكن إنساناً » ... أما العلم فهو هذا العلم المنظم الطرائق المقرر الأصول ، هذا العلم الذى وُلِدَ أمس ، علم نيوتن وداروين وإينشتين !!

كلا يا سيدى ، ما هكذا تقام الموازنات ، ولا هكذا تعقد المفاضلات . فإذا كنت قد توسعت فى معنى الأدب كل هذا التوسع ، حتى جعلته مجرد الإحساس والشعور ، فمن العدل والإنصاف أن تتوسع فى معنى العلم أيضاً ، فتجعله مجرد التفكير والمحاكمة العقلية ، فبغير ذلك لا تكون لموزانتك ولا لمفاضلتك قيمة أو معنى ، لأن الأصل في المقارنة بين شيئين أن يكون أساسهما مشتركا ...

فالعلم بمعناه الواسع قديمٌ قِدَم العقل ، لا « طفل وِلِدَ أمس » والمحاكمة العقلية — أى العلم — هى الفارق بيننا وبين العجماوات ، فيكون العلم — بهذا المعنى — مرادفاً للانسانية ، فمن لم يكن عالماً لم يكن إنساناً ... أليس كذلك ؟

« إن أول كلمة قالها الرجل الأول للمرأة الأولى » كما يقول الكاتب : « كلمة الحب ، لمكان الغريزة من نفسه » ...

وهذا صحيح ، فان الأدب — فى أعمق معانيه وأصدقها — تعبير عن الغرائز الحيوانية والبشرية ؛ وقد بدأ الأدب منذ قال « الأديب الأول » ما قال « للأديبة الأولى » وكان من نتيجة اشتغالها بالأدب واهتمامهما به ، أن أُخرجا ممّا كانا فيه ، وهبطا إلى هذه الدنيا — مما يدل على أن شؤم الأدب على أصحابه بدأ منذ ذلك العهد — ثم استمر بعدها القتل والتخريب واتباع الغرائز

رأيتُ فى قهوة أو ملهى أو معهر (Café Chanlant) فى (شارع عماد الدين)

شارع عماد الدين ! هذا شارع هاري الدين ، هائر الدين ، موهى الدين ...

فتقول : رأيت فتاة مثل الدّمية أو رأيت دمية[1] ، أمامها قشوتها أو عتيدتها[2] ، وهي تدمّ شفتها بالدمام ، وهو دمى فى الشفة !

ليس دمى فى جيدها ؛ إن دمى فى الشفة ! !

دُمك أنت — زيرَ الغوانىَ — لادمي فإنه

لم يترك الدهر من قلبى ولا كبدى

شيئاً تتيمه عين ولا جيد[3]

« ر »

---

(١) الصورة المنقشة من العاج ونحوه. ويقال للمرأة الدمية يكنى عن المرأة بها . عربية (اللسان)

(٢) تقول : إذا فتحت قشوتها نفحت نشوتها وهي طبل المرأة الذى فيه طيبها وأدهانها وهى من خوص تتخذ فيها مواضع للقوارير بحواجز بينها (الأساس) العتيدة طبل العرائس اعتدت لما تحتاج إليه العروس من طيب وبخور ومشط وغيره (اللسان) قلت : نشر العلامة الأستاذ المغربى فى مجلة المجمع العلمى العربى) مقالة ذكر فيها ألفاظاً للمسماة بالفرنسية (Sac-à-main) منها هاتان الكلمتان وهما لها ، والفضل له

(٣) المتنبي

وإطاعة الشهوات ، واستمر الأدب يصور ذلك كله ، ويعبر عنه وينبه إليه ، ويقويه فى الأذهان ، ويحييه فى النفوس ، ولولا العلم والعقل ، وسنه القوانين والأنظمة للجماعات ، ووقفه الأفراد عند حدهم ، وحدّه من شرّتهم ، لعم البلاء وعظم الخطب ، ولفسدت الأرض ومن عليها !

يقول الأستاذ على : « إن أكثر البشر استغنوا عن العلم ولم يفكروا تفكيراً علمياً » بينما « لم يستغن أحد عن الأدب ولم يعش إلا به »

وهو في هذا القول أيضاً يقصد بالأدب المعنى الواسع الذى وضعه له ، ويقصد بالعلم المعنى الضيّق الذى ارتضاه له ... ولقد بيّنا خطأ هذا القول ، وبيّنا أن « الفصيلة البشرية » تتميّز بالمحاكمة العقلية عن بقية الحيوانات ، وأن من غير الممكن أن نتصور إنساناً بغيرها ، أى بغير علم

فاذا أردنا أن نجدّ ، أى نقصد بالعلم والأدب معنيهما العاديين ، وجدنا أن كثيراً جداً من الناس يستغنون عن الأدب ، وليس لديهم خيال الأدباء ، ولا سموّ مشاعرهم ومُثلهم ، بينما نجد سوادهم الأعظم لا يستغنون عن العلم ، ونتائجه ، من وسائل المواصلات ، إلى وسائل التسلية والترويح عن النفس ، إلى غير ذلك مما لا يعدّ ولا يحصر ؛ كما أننا نجد هذا السواد الأعظم يفكرون تفكيراً علمياً . أجل ، يفكرون كما يفكر ميليكان وجيمس جينس واينشتين ... فان منطق العامة ومنطق العلماء واحد فى « النوع » وإنما الاختلاف فى « الدرجة » . وهذه الحقيقة تخفى على الكثيرين ، وإن كانت من بسائط علم المنطق الحديث ، بل إن منطق العلماء موجود عند البشر جميعاً ، لأن « الاستقراء » و « الاستنتاج » هما الميزتان اللتان تميزان العقل البشرى عن سائر الحيوانات . والنسّالة ، كما يقول هكسلى ، تستخدم فى اكتشاف أن البقعة التى على الثوب هي بقعة حبر ، عين المنطق الذى استخدم فى اكتشاف السيار نبتيون

أما سؤال الكاتب : « هل بلغ أحداً أن أديباً نظر فى معادلة جبرية ، أو قانون من قوانين الفيزياء ، أو أحس الحاجة إلى النظر فيها ؟ » فانه غريب حقاً . وما كنت أنتظره مطلقاً من الأستاذ الطنطاوى ... فهل بلغك يا أخى أن بول ڤاليرى ، أمير شعراء فرنسا ، كان عالماً رياضياً قبل أن يكون شاعراً ، وأن جوتيه ، أعظم شعراء الدنيا بعد شكسبير ، كان عالماً بيولوجياً قبل أن يكون شاعراً ، وأن هـ . ج . ولز ، عميد أدباء الانجليز ، كان أستاذاً فى الجيولوجيا ، وأن اشتغاله بهذا العلم لا يزال إلى اليوم يطبع أدبه وتكهناته وتنبؤاته ؟؟ وماذا تريد بعد هؤلاء الجبابرة من أمثلة ؟؟

الأدب لا يستطيع بحال من الأحوال أن يستقلّ عن العلم ؛ والقول باستقلاله خطأ شائع يجب تصحيحه ...

يقول الشاعر العظيم وردزورث : « إن الأشياء التي يستطيع الشاعر أن يستمدّ منها ويستوحيها موجودة في كل مكان » وإن « عيني الانسان وسائر حواسه وإن كانت ولا ريب خير مرشد له وهاد ، فانه يسير فى كل طريق ويتبع كل جو يستفز مشاعره ويستثير أخيلته ، ويستطيع أن يحرك فيه أجنحته »(١)

ويقول وليم هنرى هدسن المحاضر السابق بجامعة لندن :

« نستطيع أن نقول إن الشاعر العظيم حقاً هو مفكر عظيم فى الوقت نفسه . وهو لذلك لا بد أن يهتم ، ويتأثر باكتشافات العلم المتفرقة وبقضاياه ومساجلاته ، أو على الأقل بالحركات الفكرية التى تثيرها هذه . إن معارف العصر الجديدة ، وكل ما تحدثه من التغييرات فى معتقدات الناس الموروثة وآرائهم التقليدية فى النظام الكونى وعلاقاتهم به ، وكل ما تقدمه لهم وتضعه أمامهم من المشاكل والمسائل ، لا محالة تسحره جوانبها العاطفية والروحية سحراً لا يقاوم(٢) ؛ ثم إن ما يتراءى وراءها من خير للبشرية ومطامحها وآمالها أو من شرور ، لا بد أن يسترعى التفاته ويستدعى اهتمامه . وعلى فرض أنه لا يتخذها موضوعات تامّة له المباشر ، فانها تدخل إلى شعره من مسالك خفية لا تعد

(1) Preface to Second edition of Lyrical Ballads

(٢) ذلك بأن الشاعر — وهو هنا ممثل الأدب الخالص — لا يطلب منه أن يتحدث عن الجوانب الموضوعية من الحقائق ، لأن ذلك من شأن العلم . وإنما المطلوب منه أن يتحدث عن الناحية العاطفية والروحية منها . وقد جمع العلم عدداً هائلا من الحقائق ، يستطيع كل شاعر وأديب أن يستلهمها . فهى معين لا ينضب . ولكن أكثر الادباء لا يعلمون !

(2) Hudson, An Introduction to the Study of Literature, Shas . III . PP . 112 - 113 .

ولا تحصى ، فتلونه بلونها وتطبعه بطابعها ، كما تدخل فى تفكير عصره الجارى فتلونه بلونها وتطبعه بطابعها إذن فبعيد كل البعد عن الحق أن الشاعر لا صلة له بالعلم ومعارفه ، بل هو على الضد من ذلك ، لا يستطيع مطلقاً أن يتجاهل نتائجها الكبيرة تجاهلا تاماً ، وإذا كان من ذوى العقول الفلسفية فانه يجد الاطلاع عليها ومحاربتها فيما يتصل منها بكل مسألة ومصلحة تعود إلى حياة الانسان العليا واجباً عليه وفرضاً » ... « إن استنباط العواطف والأحاسيس من المعرفة العلمية (Emotionalisation of Knowledge) — عملية بطيئة حتما ؛ ولكن من مقاييس عظمة الشاعر كمفكر أن يقدر على أن يرى إمكان هذا الاستنباط وعلى أن يساعد — بادراكه المعانى الروحية للحقائق العلمية — على تتميمها وتكميلها (٢) »

***

ويدع الكاتب تفريقه « الفلسفي » ، ويفاضل بين العلم والأدب من الناحية النفسية . فيقول : « إننا نعلم أن العلم يبحث عن الحقيقة فهو يستند إلى العقل ، أما الأدب فيتكىء على الخيال؛ ثم ينظر فى العقل والخيال : أيهما أعم فى البشر وأظهر ؟ .. فيرى أنه الخيال « من غير شك » بل إن هذا الخيال ليمتد إلى صميم الحياة العلمية ، فالعلم إذن « مدين للخيال أى للأدب »

ولكن من المبادىء الأولية فى الأدب أن « التفكير »عنصر من عناصره الرئيسية الأربعة . فالأدب إذن يستند إلى العقل أيضاً . ومن ذا الذى يستطيع أن يزعم أن مسرحية (أهل الكهف) كلها خيال ؟ ! !

فاذا كان العلم مديناً للخيال أى للأدب ، فالأدب مدين للعقل أى للعلم . والنتيجة أن ليس هناك تفاضل ، ولا دائن ومدين ... أليس كذلك ؟ !

أما أن الخيال أعم فى البشر من العقل وأظهر ، فغير صحيح والأدلة والأمثلة التى جاء بها الأستاذ لا تثبت أن من الناس مَنْ يملكون خيالا ولا يملكون عقلاً ، ليقال إن الخيال أعمّ من العقل ، ولا أثبتت أن الذين يملكون خيالاً واسعاً أكثر من الذين يملكون عقلاً قوياً ، ليقال إن الخيال أبرز فى البشرية وأظهر

نعم « ليس فى الناس من لا يقدر على استعمال الخيال » . ولكن ليس فى الناس من لا يقدر على استعمال العقل ، وإذا كانت عقول بعض الناس « محدودة القوى » ومحاكماتهم العقلية ضعيفة ، فان خيال الكثيرين محدود القوى ضيق المجال أيضاً . وإذا لم يكن فى الناس من يعجز عن « تخيّل حرارة النار وامتداد ألسنة اللهب » فليس فيهم مَنْ لا يدرك أن اقتحام اللهب ، والدخول فى وسط النار ، يحرق جسمه ويقضى عليه ! وقولك إن كثيراً من الناس « لا يقدرون على استعمال العقل على وجهه » لا معنى له ، لأن جميع الناس يستطيعون أن يستقروا ويستنتجوا ، وإنما الاختلاف كما سبق القول فى الدرجة والمقدار

ولا أريد ههنا أن أبحث عن الصلة بين « العقل » والخيال ؛ لأن المقام لا يتسع لذلك ، ولأني أريد أن أساير الأستاذ فى فروضه ونظرياته حتى يكون الردّ ... أوجز . ولكن لا مانع من أن أسأله هذا السؤال: ما السر فى قلة أدب القصص والخيال Fiction فى الشرق عامة بالقياس إلى أدب المقالة والتفكير ؟

***

ثم يقول الأستاذ على : « أنا إلى هنا في القول بأن الحقيقة فى صف العلم والجمال مع الأدب » « والواقع غير ذاك . ذلك أن العلم فى تبدل مستمر وتغير دائم » . « في حين أن الأدب باق فى منزلته ، ثابت فى مكانته » « ولا يعتريه تغيير ولا تبديل » . فأين هى الحقيقه؟ وأي الشيئين هو الثابت ؟ وأيهما المتحول ؟

كلا هذين الرأيين مخطئان ، ولننظر أولا فى الرأى الثانى :

فالأدب متغير متبدل دائماً . لأن الأدب يصدر عن الشخصية ويخاطب الشخصية ، وبما أن شخصيات الناس تختلف ، فكل شخص يفهم من قصيدة بعينها ما لا يفهمه شخص آخر ؛ ومعنى ذلك أن الحقائق العاطفية والمعانى الروحية التى أراد الشاعر أن يوصلها إلى نفس القارىء قد ضاعت وزالت ، وبتعبير أدق ، قد تحولت إلى ملايين من الحقائق والمعانى . وهذا هو السبب فى اختلاف النقاد على الأثر الأدبى الواحد . بل إن الشاعر نفسه قد يعجز بعد مضى زمن قصير أو طويل عن استعادة معانيه العاطفية التى أودعها قصيدته . وإلى جانب هذه المعانى المتبدلة المتحولة نجد ما يحتويه « الكتاب العلمى الذى ألف منذ خمسين سنة » هي

نفس حقائق الطبيعة ، والذى لا « نقبله » منه اليوم هو نظرياته (كما سترى بعد قليل) .

فإن قلت : إن المهم ههنا أنى أقرأ اليوم الديوان الذي نظم منذ ألف سنة ولا أقبل الكتاب العلمى الذى كتب منذ خمسين سنة لأن ما فى الأول من صفات القوة والجمال وسمو الموضوع هو الذى يبقيه ويخلده . كما أن نسخ النظريات و « القوانين » الجديدة لتلك التى سبقتها هو الذى يدعونى لرفض الثانى . قلت : هذه النظرة إلى بقاء الأدب أقبلها على تعارضها مع الحقيقة التى ذكرتها عن تغيره ، لأن غايتى من هـذا المقال أن أدفع التهم التى ألصقتها بالعلم لا أن أبحث فى الأدب أو أفاضل بينه وبين العلم فلننظر الآن فى تغير العلم الدائم ، والكتاب الذى « لا يقبله طالب ثانوى » ...

يتلخص عمل العلم فى أنه يجمع مقداراً من الحقائق ، ثم يحاول أن يضع لهـا قاعدة عامة تربطها وتفسرها جميعاً ، على أن تنطبق على كل ما يكشف من الحقائق بعد وضعها . فإذا اكتشفت حقيقة أو أكثر لا تتفق معها عدل عنها إلى قاعدة أخرى ، أعم وأشمل . وهكذا « يتدرج » العلم من قاعدة إلى قاعدة أوسع ، أى تنطوي على حقائق أكثر . إن العلم لا يرى في هـذه القواعد والنظريات والقوانين أكثر من « فروض » . ولـكن بهـذه الفروض وحدها يستطيع أن يكشف الحقائق ، لأن كل فرض ينبه إلى حقائق جديدة ، ولأن العلماء حين يضعون فرضاً لا يكتفون به ولا يسكنون إليه ، بل يجدون في البحث والملاحظة والاستقراء وابتكار الآلات واستنباط الوسائل التى تعينهم على الوصول إلى بيانات أوفى ، وحقائق أكثر . وهـذه تقابل مع الفرض الموضوع ، فان تعارضت معه وضع فرض أشمل . إذن فوضع فرض جديد معناه كشف حقائق طبيعية جديدة — لا تغير فى الحقائق السابقة — ومعناه أيضاً « تقدم » — لا تغير — من فرض إلى آخر أشمل .

ومن ذلك نستطيع أن نستنتج بسهولة أن الطالب الثانوى لا يرفض الكتاب الذى ألف منذ خمسين سنة ، بل يقبله ، ويقرؤه ، ولـكن النسخة التى بين يديه هى طبعة جديدة من ذلك الكتاب منقحة وموسعة ...

وزيادة فى توضيح المسألة أدع السر چيمس چينس يردُّ على الأستاذ الطنطاوى :

« إن الغرض العام للعلم هو أن يسير إلى مثل هذه النظريات ويصل إليها . ولا نستطيع مطلقاً أن نعتبر نظريةً ما نهائية أو حقيقةً مطلقة ، إذ من المحتمل أن تظهر حقيقة جديدة ترغمنا على ترك هذه النظرية ؛ وقد يحدث ذلك للنظرية النسبية ولو أنه بعيد الاحتمال ، وإذا ماحدث ذلك برغم استبعاده فان الوقت الذى أنفق في تكوينها لم يضع سدى ، بل سيكون تدرجاً إلى نظرية أوسع وأكمل ، تتفق مع عدد أكبر من الظواهر الطبيعية . من ذلك يظهر العلم للرجل العادى متغيراً دائم التغير دائراً حول نفسه مخالفاً لنظرياته الأولى ، ولـكن العالِمَ يراه دائم التقدم ، يرقى من نظرية إلى أخري ، تحظى كل نظرية منها باتفاقها مع حقائق تزيد على التى أزاحتها ، ورائده الوصول إلى هدفه الأسمى وهو النظرية التى تفسر ظواهر الطبيعة كاملة » (١)

***

ثم ينظر الأستاذ فى نتائج العلم ويسأل : ماهى فائدة هذا العلم ؟ وماذا نفع البشرية ؟

يريد أن يقول : ماهى فائدة هذا العقل ؟ والجواب على ذلك سهل ميسور . فالعقل لم يوجد إلا ليستخدمه الانسان فى الدفاع عن نفسه ، والتغلب على أعدائه من الحيوان ، وفى حفظ بقائه ، وفى الرقى بحياته وتوفير أسباب سعادته بعد ذلك ؛ ولولا هذه الغاية لما وجد أصلاً ... ولقد جرب العقل الفلسفة فوجدها عاجزة كل العجز عن إبلاغه هذه الغاية ، لأن الفلسفة كما لا يخفى عليك كلام فى كلام ؛ والكلام لا يستطيع أن يقتل حشرة ، أو يهلك مكروباً ، أو يصنع طيارة . لذلك تركها وأساليبها و« قِيَمها » وخرافاتها ، وسلك هذا المهيع السوىّ ، والطريق الواضح ، طريق العلم ... فلم يلبث حتى رأى نتائجه المحسوسة الباهرة ... فالعلم إذن آخر مظهر من مظاهر الرقي العقلى ، وآخر إتجاه اتجه إليه العقل . وليس من البعيد جدًّا أن يتفق العلم والفلسفة والدين على أية صورة من الصور ، ولـكن دوره سيظل هو هو لا يتغير ولا يتبدل

(١) من مقالة للسرجينس نشرت ترجمتها فى العـدد ١٨٥ من الرسالة تحت عنوان (بناء العلم)

ودوره هذا لا يقتصر على تخليص البشرية من جميع أعدائها ولا على إسعادها ماديًّا ، فحسب ، بل هو يشتمل على إسعادها فكريًّا ، وتلك هي غايته العليا

***

تقول : « إن الاختراعات ليست خيراً كلها ، وليست نفعاً للبشرية مطلقاً » وهذا صحيح ، أو هو صحيح إلى حد ما ؛ والمفهوم منه أن أكثر الاختراعات خير ، وإن لم تكن كلها خيراً ؛ ولكنك لا تلبث حتى تنقضه بهذا التقرير « الحسابي » الحاسم ، وهو أن العلم « شره بخيره والنتيجة صفر » ... صفر !!

وتقول : إن العلم « سهّل المواصلات وهوّنها ، فقرّب البعيد ، وأراح المسافر ، ووفر عليه صحته ووقته ، ولكن هل أسعد ذلك البشرية ؟ »

بالطبع . والأدلة موجودة فى السؤال . ولكنك ترى غير هذا الرأى ، وتجيب جواباً لا صلة له ألبتة بالسؤال . فوسائل المواصلات الحديثة لم تسعد البشرية ، ولماذا ؟ لأننا لم نعد نتحمل آلام المسافات الطويلة ، أو نتعرض لمخاوفها ، فخسرنا الصور والمشاعر « وصرنا نقطع طريقنا إلى القبر عدواً ونحن مغمضو عيوننا ... لم نر من لجة الحياة إلا سطحها الساكن البراق ! » ... وهذا بالطبع دليل ساطع قاطع على أن وسائل المواصلات الحديثة لم « تسعد » البشرية ... صحيح ! !

ثم تقول إن العلم تغلب على كثير من الأمراض ، ولكنه هو الذى جاء بها ، جاءت بها الحضارة ، (وهذه فكرة خاطئة عن صلة العلم بالحضارة ، وليس هذا موضع بحثها) فهو لا يزال مديناً .. تقول هذا ناسياً ناحية مهمة ، وهو أن الحكم على العلم وموقفه من الأمراض لا ينبغى أن يبنى على وضعه الحاضر فقط ؛ فاذا كان العلم قد تغلب فى هذه المدة القصيرة على كثير من الأمراض واكتشف جراثيمها ، وصنع السموم المضادة لها ، فانه سيتغلب عليها جميعاً ، ويفنى الجراثيم عن آخرها ، وكذلك يقضى على عدو آخر فظيع للبشرية ، وهو الحشرات ؛ وعندئذ تستريح البشرية وتسير قدماً إلى الأمام — وفى النجاح الذى أحرزه إلى اليوم خير مؤيِّد لما أقول ...

***

إن هؤلاء البدو الذين يرفع من حياتهم الأستاذ على سيتحضرون حتما ؛ لأن التحضر يجرى بحكم قانون طبيعى قاهر . وهؤلاء البدو ليسوا سعداء ، كما يظن ، لأنه لا يمكن أن يكون سعيداً من يفترس أخاه لقبضة من العشب ، أو جرعة من الماء . ونحن يجب أن ننظر إلى فتوحات العرب نظرة اقتصادية قبل كل شئ ...

ثم إن هناك فرقاً بين سعادة وسعادة . وسعادة اينشتين حين يقع على حقيقة جديدة ، ليست هى سعادة زنوج أفريقيا ، أو بدو نجد ، لأن سعادة الانسانية الراقية أعلى من سعادة الانسانية المنحطة . وهذا الفرق يشبه تماماً الفرق بين الرواية البوليسية السخيفة وبين « هاملت » ، وبين « اللذة » التى يحصل عليها القارئ العامى من قراءة الأولى ، وبين « اللذة » التى يحصل عليها المثقف من قراءة الثانية . فلننظر إلى طبيعة اللذة والسعادة قبل كل شئ .

عبد الكريم الناصرى

الفلسفة الشرقيـــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢٥ —

الفلسفة الصينية

العصر المنهجي — « لاهو — تسيه »

فلسفته العملية

يغالي بعض الباحثين حين يصف « لاهو — تسيه » بأنه ميتافيزيكي فحسب ولا شأن له بالفلسفة العملية أو الأخلاق كما يصف « كونفيشيوس » بأنه عملي لا يأبه للميتافيزيكا ، وإنما الحقيقة أن لكل منهما رأياً قيما فى الأخلاق ، وهذا طبيعى ، لأنهما اغترفا من منبع واحد ، وهو فلسفة عصر ماقبل التاريخ ، ولكن الخلاف قد دب بينهما حول الوسيلة التي توصل إلى الخير والكمال ، فبينما كان « لاهو — تسيه » يرى أنها التنسك واحتقار المادة وإهمال الحياة العملية وعدم الإكثار من القوانين ، ويرى أن عصر الأباطرة الذين شرعوا القوانين واللوائح كان عصر تدهور وانحلال تلا العصر الذهبى الذي كان الملوك فيه لا يعرفون القوانين ولا يهتمون بالعقاب ، كان « كونفيشيوس » على العكس من ذلك يرى أن العصر الذهبي هو عصر أولئك الملوك الذين قننوا القوانين ووضعوا القواعد التشريعية ، ولهذا كان يتخذهم نماذج يسير على مناولهم . وإذن ، فالاثنان أخلاقيان يريدان الكمال والسعادة للأمة ، وإنما يختلفان فى الوسيلة فحسب ، وقد شرح « لاهو — تسيه » رأيه فى الأخلاق العملية فقال مانصه : « بقدر ما يكثر الملك من القوانين واللوائح ، يهوى الشعب فى البأساء ؛ وبقدر مايكون لدى الشعب من وسائل للغنى والرفهنية ، تكون حالة الأسرة والوطن رديئة ؛ وبقدر ما تتضاعف الأوامر الشديدة يكون عدد اللصوص والمجرمين فى نمو وتضاعف [1] » وعلى الجملة ، كان المثل الأعلى من الملوك فى رأيه هو الملك الذي يجهل رعيته الوجود جهلاً تاما

(١) راجع « تاو — تى — كينج » فصل ٥٧

وعنده أن المعرفة الظاهرية رديئة ، لأنها لا توصل إلا إلى حقائق نسبية ، ومن حيث إن الغاية المقصودة هى الحقيقة المطلقة فى ذاتها ، فينبغى ألا ننشغل إلا بما يوصل إلى هذه الحقيقة ، ولا يوصل إليها إلا الاتحاد التام ، والامتزاج الكامل بـ « تاو » ولا يتيسر هذا الامتزاج بالتربية ولا بالتثقيف الظاهرى ، كلا ، فهاتان الوسيلتان معدومتا الفائدة ، وإنما هو يتحقق بالعزلة التامة ولذلك فالقديسون الذين يريدون الاتصال بـ « تاو » واتباع الصراط السوى ، يجب عليهم أن ينبذوا كل ثقافة وينسحبوا إلى مكان مقفر ويعيشوا كما كان أهل العصور الغابرة يعيشون ممتزجين بالقوة غير المرئية ، وهو يصف هذه الحالة فيقول : يكون خائفاً كمن يخترق سيلا فى الشتاء ، متردداً كمن يخشى أن يراه جيرانه ، جدياً كأجنبي فى محضر ضائفه ، بارداً كالثلج حين يتحلل ، جافا كالخشب الخام ، فارغا كالوادى [1] » وفى العموم أن المثل الأعلى للخيرية فى رأى هذا الفيلسوف هو الطفل الذى يولد على الفطرة بريئا نقيا ، وأن الوسائل التى توصل إلى الكمال هى : الحياء والضعف والبساطة و « الؤووى » ومعناه العزلة والتخلى عن كل عمل ، وسلوك الصراط السوى

غير أن هذا كله ليس معناه أن « لاهو — تسيه » قد أمر بإهمال المسئولية الاجتماعية ، كلا ، بل هو قد حض بالعكس على العناية بالجمعية البشرية وأعلن أن الأنانية وإهمال خدمة العمران من الرذائل الكبرى وقد سبقت تعاليمه الآمرة بالغيرية والمحبة العامة تعاليم المسيحية بنحو ستة قرون ، ولم يكن تبشير « لاهو — تسيه » بحب الغير ناشئاً عن عاطفة ، وإنما كان منبثقاً من منبع الواجب والالتزام اللذين كانا يملكان عليه تفكيره وحواسه

وعنده أن القديس هو الذى يحكم الشعب ويسوسه ، ولكن لا بالقوة والقسوة ، بل بالمثل الأعلى الذى يقدمه مثبتاً به أنه فوق الطبيعة ، وأنه لا يحكم شعبه بالقوانين والعقوبات ، ولا يخضع الشعوب الأخرى بالحروب ، وإنما يعامل الجميع ببساطة الطفل وطهارته ؛ هذا هو وحده الأمير الذى تنتظره الصين وتعول عليه فى محنتها

أحسب أنك ترى بعد كل هذا معى ومع الأستاذ « زانكير » أن « لاهو — تسيه » كان فيلسوفاً لا تنزل به عبقريته إلى ما هو أدنى من صفوف أفلاطون والقديس « أوجوستان » و « كانت » وأنه إذا كان قد أخفق أو ضل السبيل فى بعض

(١) انظر الكتاب المذكور فصل ١٥

أفكاره ، فان التبعة فى ذلك واقعة على التدهور الذي كان ميزة عصره وخاصيته ، وإذا لم يكن مذهبه قد أزهر فيا بعد كما أزهرت مذاهب الإغريق ، فان لذلك سببين : الأول أنه لم ينشىء فى حياته مدرسة لنشر فلسفته ، والسبب الثانى أن الطبيعة الصينية لم تكن تتلاءم مع تعاليمه المغالية فى التنسك والسلبية ، ولهذا لم تكد فلسفته تعرف فى أوروبا حتى أزهرت فى البيئات الاشراقية إزهاراً لم تعرف له نظيراً فى منبتها الأصلى

« التاوإيسم » أو « اللاهو — تسيه »

بعد أن توفى « لاهو — تسيه » نشأ من ميتافيزيكيته مذهبان : « التاوإيسم » الفلسفي و « التاوإيسم الديني » ، وكلاهما نشأ من « تاو » وهو عنوان كتابه الذى أشرنا إليه . فأما « التاوايسم » الفلسفى فقد انقسم فيه تلاميذ الحكيم إلى عدة أقسام ، فبعضهم تخصص فى دراسة المعرفة وما يمكن أن يحصله الإنسان منها ، وهل هذا المتحصَّل مفيد أو غير مفيد . والبعض الآخر قصر بحثه على دراسة الظواهر الطبيعية وما تحتويه من أسرار . ولكن لما كان الجميع متأثرين برأي أستاذهم الذى أسلفناه ، وهو القائل بأن « التاو » غير قابل للمدركية البشرية ، فقد كان من الطبيعي أن يعلنوا أن العقل الانسانى قاصر عن إدراك « المطلق » وبالتالي هو قاصر عن إدراك بعض الحقائق الموجودة

هناك فريق ثالث من تلاميذ هذا الحكيم لما يئسوا من إدراك العقل البشرى لكنه « التاو » لم يجدوا بداً من أن يعلنوا أن مالم يُدرَك بالعقل ، يدرك بوساطة السحر ؛ وهنا نشأ مذهب « التاو إيسم » الدينى وهو مزيج من قواعد سحرية ، وتعاليم تصوفية . ولما كان هذا القسم الأخير لا يعنينا كثيراً فى دراستنا الحاضرة فقد آثرنا أن نقصر إشارتنا هنا على « التاوإيسم » الفلسفي

من أشهر أولئك التلاميذ الذين أحيوا مذهب أستاذهم بعد موته وواصلوا سلسلة بحوثه هو « يين — سى » الذى سار على ضوء تعاليم أستاذه فكتب بحوثاً قيمة حول نظرية المعرفة ونقد العقل البشرى وأبان قصوره عن إدراك « المطلق » ومن مشاهير هؤلاء التلاميذ أيضاً « لين — تسيه » الذى كان من أعلام عصره الأجلاء والذي كتب بحوثاً هامة حول كثير من المشاكل الفلسفية ، ولكن مما يدعو إلى الأسف أن ما عثر عليه من مؤلفاته وجد مشوهاً متناقضاً مما يدل على أن بعض الأيدى قد عبثت به وقد عاش هذا الحكيم فى القرن الخامس قبل المسيح

هناك حكيم آخر من أولئك التلاميذ ، وهو : « تشوانج — تسيه » الذى عاش في النصف الثانى من القرن الرابع قبل المسيح وعاصر « مانسيوس » الذى سنتناوله بعد أستاذه « كونفشيوس »

يروى لنا المؤرخون أن هذا الحكيم شغل فى مطلع شبابه مركزاً سياسياً هاماً ، ولكنه لم يكد ينضج حتى عاف السياسة واعتزل الخدمة وقصر حياته على البحث والتأليف ، وفى أثناء ذلك بلغت كفايته مسمع الملك ، فبعث إليه رسوله بهدية عظيمة وطلب إليه أن يقبل منصب وزير فى الدولة ، فلما عرض عليه الرسول ذلك أجابه بقوله : إن هذا المبلغ عظيم إذا قيس إلى حالتي وإن منصب الوزير منصب محسود ، ولكن ألم تر فى حياتك أن الثور الذى خصص للذبح فى أحد المعابد ثم أخذوا يطعمونه حتى سمن ثم أحاطوا جسمه قبل ذهابه إلى المذبح بالحلى والجوهرات ليكون منظره جميلا ، ألم تر أن هذا الثور ساعة دخوله إلى المعبد يتمنى أن لو كان خنزيراً صغيراً حتى يعفى من الذبح ، ولكن هذا التمني لايجديه فتيلا ؟ إذهب إذن من هنا ولا تهنى بمحضرك فأنا أفضل أن أنام في قناة حمئة مليئة بالأوحال على أن أذعن لتقاليد البلاط والتزاماته

ويحدثوننا كذلك أن هذا الافراط فى التمسك بالكرامة والمحافظة على حرية الرأى قد جر عليه حياة مليئة بالصعوبات والأشواك ، ولكنها مليئة كذلك بالاحترام والاجلال إلى حد أن روت لنا إحدى الأساطير أن أخرى زوجاته كانت من الأسرة المالكة

مؤلفاته ومذهبه

روى التاريخ أن هذا الحكيم قد كتب ثلاثة وثلاثين كتاباً وأن هذه الكتب كلها قد جمعت تحت عنوان واحد وهو : « المناهج الحقيقية لزهور بلاد الجنوب » ولكن المدققين من المؤرخين يرون أنه لم يثبت له شخصياً إلا نحو عشرة كتب كتبها بخطه ؛ أما الباقى فهو مجموعة مكونة من آرائه وآثاره مع شروح وتعاليق تلاميذه

أما مذهبه فيمكن أن يدرس من ثلاث نواح : الناحية الأولى النظرية ؛ وفيها لم يكن يختلف عن أستاذه « لاهو — تسيه » فى شىء ، إذ هو يرى معه أن المقلية البشرية قاصرة عن إدراك « التاو » بواسطة المعرفة الثقافية التى لا تتناول إلا الحقائق النسبية

أما « المطلق » فهو لا يعرف إلا عن طريق الانفعال النفسانى ، وإن كل محاولة لمعرفة هذا « المطلق » عن طريق التفكير المنطقى آيلة ضرورة إلى الفشل المحقق بعد أن تقود صاحبها إلى صحراء قاحلة من السفسطة والضلال ، لأن المنطق لا يصل إلى نتائجه إلا بالتحليل ؛ ولو أصبح تحليل « المطلق » ممكناً ، لخرج عن كونه « مطلقا »

أما الناحية العلمية من مذهبه : فهى وإن كانت مؤسسة على الأصول الجوهرية من آراء « لاهو — تسيه » إلا أنها تطورت عن المذهب القديم كثيراً . ولإيضاح هذه الناحية العملية أجرى فيلسوفنا الشاعر محاورة بين روح السحاب وبين الضباب ، ثم بسط مذهبه على لسان الضباب فقال : « صير قلبك حازماً وتجنب كل تدخل فى أى شىء ؛ أى الزم ال « وو — وى » أو « اللاعمل » ودع الأشياء تتطور حسب ناموسها الطبيعى ، ولا تأبه لجسمك وأغلق عينيك وأذنيك ، وانس كل ما يربطك بالعالم الخارجى ، وامتزج بالمبدأ الأول . فك وثاق قلبك ، ومد روحك ؛ وعد إلى عالم « اللاإدراك » فإذا تحقق ذلك رجع كل كائن إلى الصدر المبدئى العام ، وعاد كل شىء إلى مَنشئِه دون علم منه بهذه العودة واجتمع كل موجود ، وتوحد الجميع كما كانت الحال فى البدء ، ولم يصبح كل كائن مريداً ولا قادراً عن البعد عن هذه الوحدة المطلقة الأبدية »

ويعلق أحد الستصينيين على هذا بقوله : ينبغى ألا يتسرب إلى الأذهان أن تنسك « شوانج — تسيه » كان نوعاً من الحرمان والرهبنة على نحو ما هو موجود فى الديانات الهندية والمسيحية ، كلا ، فالحكيم فى رأيه لا يستحق هذا الاسم إلا إذا ترفع عن جميع الآلام وتخلص منها وأخضعها لإرادته . أما متنسكو تلك الديانات فهم تحت الآلام لا فوقها ، وهذا فرق عظيم يجب أن يعنى به الباحثون

بهذا الفيلسوف تنتهى أرقى الحركات العقلية حول « التاوإيسم » الفلسفى بعد أن أزهرت إبان القرنين : الخامس والرابع قبل المسيح إزهاراً ساعد عليه تعطش الشعب إلى السعادة والهدوء فى وسط معمعان هذا التدهور السياسى والعمرانى الذى أشرنا إليه آنفا

هذا ، وسندرس ما عرض له « التاو إيسم » من تطورات فى العصور التاريخية التى تلت هذا العصر ، ولكن بعد أن ننتهى من دراسة أعلام المذهب الآخرين وهم : « كونفيشيوس » وأشياعه

(يتبع) **محمد غلاب**

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعى

١٨٨٠ — ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ٩ —

« قطعتنى زحمة العمل أسبوعين عن مواصلة الكتابة وقامت بينى وبين الواجب ؛ ثم ألح علىّ المرض أسبوعين يغدو ويروح بين الليل والنهار ، فلا أهم أن أشرع القلم لأستأنف حديثى حتى يقطعنى الاعياء ويقعد بى العجز . فما كان من صمتى فى الأسابيع الأربعة الماضية فهو من ذاك ، ولعله عذر يبلغ بى عند الأصدقاء الذين ظنوا بى ما ظنوا لهذا الصمت الطويل فأوسعونى فى رسائلهم عتباً وملامة ، فكان عتابهم آية من آيات الود الصافى وحسن الاخاء »

الرافعى فى سنوات الحرب

كان الرافعى — رحمه الله — شاعر النفس ، مرهف الحس ، رقيق القلب ، قوى العاطفة : يرى المنظر الأليم فتنفعل به نفسه ويتحرك خاطره وينفطر قلبه ؛ وتقص عليه نبأ الفاجعة فلا تلبث وأنت تحكى له أن تلمح فى عينيه بريق الدمع يحبسه الحياء . ولقد كان الرافعى يقرأ فيما يرد إليه من بريد قرائه كثيراً من المآسى الفاجعة يسأله أصحابها الرأى أو المعونة ، فما يقرؤها إذ يقرؤها كلاماً مكتوباً ، ولكنها تحت عينيه حادثة يشهدها ويرى ضحاياها فما تبرح ذاكرته من بعد إلا مع الزمن الطويل

ولقد وقعت الحرب واستعرت نارها فى الميادين البعيدة لا يبلغ إلينا منها نار ولا دخان ولا يراق دم ، ولكنها أرسلت إلى مصر الفقر والجوع والغلاء ، فما كان ضحاياها فى مصر بالجوع والمتربة أقل عديداً من ضحاياها هناك فى الميدان ... كيف كان يعيش العامل المسكين فى تلك الأيام ؟ رباه ! إننى ما أزال أذكر يوم أرسلنى والدى — وأنا غلام بعد — أستدعى النجار لعمل عندنا فوجدته جالساً فى أهله يأكلون : كانوا ستة قد تحلقوا حول قصعة سوداء فيها كومة من فتات الخبز إدامه الماء ، تتسابق

أيديهم إليه فى نهم كأنما يخشى كل واحد أن تعود يده إلى القصعة بعد الأوان فلا يجد اللقمة الثانية ... !

هكذا كان يعيش نصف الشعب فى تلك الأيام السود مما فعل القحط والغلاء ، لأن أقوات الشعب قد حُملت إلى الميدان لتخزن في دار المؤن وقتاً ما ، لتقذفها من بَعد قنابل المحاربين وتذروها رماداً فى الهواء ... !

ونظر الرافعى حواليه فارتد إليه البصر حسيراً مما يرى ويسمع ، فاحتبس الدم فى عينيه ولكن قلبه ظل يتحدث بمعانيه

ومضى عام وعام والحرب ما تزال مستعرة ، والبؤس تتعدد ألوانه ، وتتشكل صوره ، وتحشد آثاره ؛ والرافعى دائم الحديث إلى نفسه وهو يحمل من هم الشعب في قلبه الكبير ، حتى امتلأ الإناء يوماً ففاض ...

***

فى بعض اللحظات التى تفيض فيها النفس بالألم ، يحس الإنسان كأنه شيء له فى نظام الكون إرادة وتدبير ، وأن من حقه أن يقول للمقدور : لماذا أنت فى طريقى ...؟ فتراه فى بعض نجواه يتساءل : ربِّ ، لِمَ كتبت علىَّ هذا .. ؟ لماذا حكمت بذلك ..؟ لماذا قدَّرت وقضيت ..؟ ما حكمتك فيما كان ..؟ ألم يكن خيراً لو كان ما لم يكن .. ..؟ ثم يثوب إلى نفسه ويفيء إلى الحق ، فيعود معتذراً يقول : رب ، لقد ظهر حكمك ، ودقت حكمتك فمغفرة وعفواً ... !

وتظل حكمة الله مطوية فى ظلمات الغيب ، لايتنورها إلا من غمره شعاع الإيمان وسطع فى قلبه نور الحكمة ، أما الذين تعبدتهم شهوات أنفسهم فهم أبداً فى حيرة وضلال

فى لحظة من تلك اللحظات أغمض الرافعى عينيه وراح يفكر ، وفى رأسه خواطر يموج بعضها فى بعض ؛ ثم فاءت نفسه ، فرفع رأسه وهو يقول : « ربِّ ، ما أدق حكمتك وأعظم تدبيرك..! » وأفاض الله عليه ورفع عن عينيه الغطاء ...

وعاد ينظر إلى الناس يأكل بعضهم بعضاً ، ويسرق بعضهم أقوات بعض ، ويتزاحمون على الحياة فيسارعون إلى الموت ؛ فدمعت عيناه ولكنه كان يبتسم ، وعاد يقول : « حكيم أنت يا رب ! ليتهم وليتنى ...ليتهم يعلمون شيئاً من حكمة الله فى شيء من أغلاط الناس ! ... كل شيء فى هذا الكون العظيم يجرى على قَدَرٍ منك وتدبير حكيم ! »

ثم شرع يؤلف كتابه المساكين

كتاب المساكين

أخرج الرافعى كتابه هـذا فى سنة ١٩١٧ ، وهو الكتاب الرابع مما ألف الرافعي فى المنثور ، وثانى ما ألف فى الأدب الإنشائى ، ويعرِّف به الرافعي فى الصفحة الأولى منه فيقول : هو كتاب « أردتُ به بيان شيء من حكمة الله فى شيء من أغلاط الناس »

وقدم له بمقدمة بليغة فى معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنسانى يقول فيها :

« هذا كتاب حاولت أن أكسو الفقر من صفحاته مَرْقعةً جديدة ... فقد والله بليت أثواب هـذا الفقر وإنها لتنسدل على أركانه مزقاً متهدِّلة يمشى بعضها فى بعض ، وإنه ليلـفقـها بخيوط من الدمع ويمسكها برُقع من الأكباد ويشدها بالقطع المتنافرة من حسرة إلى أمل وأمل إلى خيبة وخيبة إلى هم ؛ وأقبحُ من الفقر ألا يظهر الفقر كاسياً أو تكون له زينة إلا من أوجاع الإنسانية أو المعانى التى يتمنى الحكماء لو أنها غابت فى جماجم الموتى الأولين ... »

والكتاب فصول شتى ، ليس له وحدة تربط بين أجزائه ، إلا أنه صور من آلام الانسانية كثيرة الألوان متعددة الظلال ، تلتقى عندها أنة المريض ، وزفرة العاشق ، ودمعة الجائع ،وصرخة اللهفان المستغيث ؛ فهنا صورة (الشيخ على) الرجل الذى يعيش بطبيعته فوق الحياة وفوق الناس لأنه يعيش بنعمة الرضى ، وإلى جانبه قصة الغنى الشيخ الذى حسب أنه سيطر على الحياة لأنه ملك المال ، وهذه صاحبته الحسناء الصغيرة التى انتشلها الشيخ بماله من الفقر الجائع فوهب لها المال ولكنه سلبها نعمة الشعور بالحياة ، وهذه ، وهذه ... من صور المساكين الذين يعيشون يحتسون الدموع أو يتطهرون بالدموع

وأول أمر الرافعي فى تأليف كتاب المساكين أنه كان فى زيارة أصهاره فى (منية جناج) فلقى هناك الشيخ على ، والشيخ

على هذا رجل يعيش وحده ليس له جيب يمسك درهماً ، ولا جسد يمسك ثوباً ، ولا دار تؤيه ، ولا حقل يغل عليه ؛ يجوع فيهبط على أول دار تلقاه يتناول ما يمسك رمقه ، ويدركه النوم فيتوسد ذراعه حيث أدركه النوم من الدار أو الطريق ، رجل يعيش بطبيعته فوق كل آمال الناس ، وآمال الحياة ، ولقيه الرافعي واستمع إلى خبره فعرف من فلسفته فلسفة الحياة ، ووجد عنده الحل لكل ما في نفسه من مشكلات ، فكان هذا الكتاب من وحي الشيخ علي الفيلسوف الصامت في الرافعي الأديب ، واجتمعت له مادة الكتاب في مجلس واحد لم ينطق فيه أحد بكلمة

ويصف الرافعي الشيخ علي فيقول :

« ... هو حليم لنفسه غضوب لنفسه ، وكذلك هو في الخفة والوقار ، والضحك والعبوس ، والزهو والانقباض ، وفي كل ضدين منهما لذة وألم ؛ كأنه جزيرة قائمة في بحر لا يحيط بها إلا الماء فلا صلة بينهما في المادة وإن كانت هي فيه ؛ فالناس كما هم وهو كما هو يرونه من جفوة الزمان أضعف من أن يصاب بأذى ، ويرى نفسه من دهره أقوى من يصيب بأذى ؛ ويتماشونه رأفة ورحمة ، ويتحاماهم أنفة واستغناء ؛ ثم إن مسه الأذى من رقيع أو سقيط أحسن إلى الفضيلة بنسيان من أساء إليه فيألم وكان ألمه مرض طبيعي ، ولا فرق عنده في هذه الحال بين أن يمغص بطنه بالداء أو يمغص ظهره بالعصا ... ! وهو والدنيا خصمان في ميدان الحياة غير أن أمرهما مختلف جداً فلم تقهره الدنيا لأنه لم يطمح إليها ولم يقع فيها ، وقهرها هو لأنها لم تظفر به ...

« ... وهو رجل سدت في وجهه منافذ الجهات الأربع كلها إلا جهة السماء ، فكأنه في الأرض بطل خيالي يرينا من نفسه إحدي خرافات الحياة ، ولكنه مع ذلك يكاد يخرج للدنيا تلك الحقيقة الإلهية التي لا تغذوها مادة الأرض ولا مادة الجسم ، فهي تزدري كل ما على الأرض من متاع وزينة وزخرف وكل ما ردت عليك الغبطة من بسطة في الجسم أو سعة في المال أو فضل في المنزلة ؛ وكل ما أنت من إقباله على طمع ومن فوته على خوف ...

« ... فهو أجهل الناس في الدنيا وأجهل الناس بالدنيا ... وأنت إذا سطعت له بالجوهرة الكريمة النادرة فلا يعدو أن يراها حصاة جميلة تتألق ، وإن هولت عليه بألوان الخز والديباج حسبك مائقا لم تر قط نضارة البرسيم وألوان الربيع ... »

هذا هو الشيخ علي الذي أوحى إلى الرافعي كتاب المساكين ونسب إليه القول فيه ورده إلى إلهامه ، وهو عنده النموذج الكامل للرجل السعيد والفيلسوف الناضج

ولقد فرغ الرافعي من كتاب المساكين في سنة ١٩١٧ ؛ وفرغ الشيخ علي من دنياه بعد ذلك بقليل ، ولكن روحه ظلت تعمل في نفس الرافعي وتملي عليه وتلهمه الرأي إلى آخر أيامه بعد ذلك بعشرين سنة ؛ والواقع أن الرافعي كان يؤمن بفلسفة التسليم والرضى فيما لا طاقة له به ، إيماناً كان مادة حياته ونظام عمله ، وإيمانه ذاك هو الذي كان يفيض عليه أمارات المرح والسرور حتى في أعصب أوقاته وأحرج ساعاته ، فكنت لا تراه إلا مبتسماً أبداً أو ضاحكاً ضحكة السخرية والاستسلام

***

كتاب المساكين الذي يقول عنه المرحوم أحمد زكي باشا :

« لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير ، وهيجو كما للفرنسيين هيجو ، وجوته كما للألمان جوته »

هو كتاب اجتمع على إخراجه سببان : أهوال الحرب التي حطت على مصر بالجوع والقحط والغلاء ، والشيخ علي الجناجي

« شبرا » محمد سعيد العريان

أبحاث تاريخية جديدة

الاسلام في غرب أفريقية

مدى انتشاره فى تلك الأقاليم ومبلغ أثره فى الأهلين

للأديب جمال الدين محمد الشيال

تابع ما نشر فى العدد الماضي

كيف عم الاسلام غرب أفريقيا

١ — فى المدة التى بين سنتى ٦٤٠و٦٤٢ تم لعمرو بن العاص فتح مصر . ومنها استطاع عبد الله بن أبى سرح وعبد الله بن الزبير فيما بعد فتح طرابلس وتونس والجزائر

٢ — وفى سنة ٦٦١ كانت واقعة صفين المشهورة وانشق بعدها قوم على على بن أبى طالب فسموا بالخوارج . وقد هاجرت فئة منهم إلى شمال أفريقية ونزلوا بشواطئ تونس ، وقد استمرت بقاياهم حتى قبيل الحرب العظمى فى جزيرة جربا Jerba . وهناك انتشرت آراؤهم . ومن هذه الجزائر انتقلت هذه الآراء إلى شمال أفريقية حتى ساحل مراكش الأطلسى ؛ وبعد سنة ٧٢٠ أصبحت الخارجية مذهب الأهلين من البربر

٣ — وفى سنة ٦٦٩ استقر حكم العرب فى شمال أفريقية ، وعين عقبة بن نافع حاكما على أفريقية (تونس الحالية) ؛ وفى سنة ٦٧٣ أنشئت القيروان لتكون حاضرة لحكم المسلمين . وفى سنة ٦٨١ تقدم عقبة نحو الغرب بجيشه حتى وصل إلى المحيط الأطلسى

٤ — وبعد سنة ٧٩٥ تولى حكم أفريقية موسى بن نصير وتقدم فى فتوحه حتى استولى على مراكش إلا مدينة سبتة Septa وهناك لم يجد العرب صعوبة فى نشر الاسلام دين الفطرة . وتمكن موسى من فتح الأندلس بعد ذلك على يد قائده البربرى طارق بن زياد

٥ — وتولى حكم أفريقية بعد هذا الأدارسة ثم الأغالبة وتبعهم أسرات أخر حتى أتى الفاطميون فورثوا الحكم وأغاروا على مصر واستقلوا بها باسطين نفوذهم على أفريقية وصقلية

٦ — وفى المدة التى بين القرن السابع ومنتصف القرن الحادى عشر كان العنصر العربى فى شمال أفريقية أقلية يمثلون فى آلاف من الجنود والحكام ورجال الدين . ولكنهم استطاعوا بمرور الزمن أن يفرضوا دينهم ولغتهم وحكمهم على ملايين من البربر

٧ — وحوالى سنة ١٠٤٥ نزل بالشاطئ الأيمن للنيل قبائل بنى هلال وبنى سليم آتين من أواسط بلاد العرب وابتدأوا يعملون على إثارة الشغب فى مصر العليا ؛ ولكى يتخلص منهم حكام مصر الضعفاء فى ذلك الحين حرضوهم على أن يغزوا شمال غرب أفريقية ، فعبر الصحراء منهم مايقرب من المائتى أو الثلاثمائة محارب حتى وصلوا إلى حدود تونس وطرابلس واستقروا هناك

٨ — وبعد مدة يسيرة رحل إلى مصر قبائل أخرى من شبه جزيرة العرب ووصلوا إلى النيل الأوسط . وعلى النيل الأزرق (فى سنار) أنشأوا امبراطورية الفنج Fung العظيمة التى استقرت من القرن الرابع حتى القرن التاسع عشر . ومن النيل الأعلى قاد هؤلاء الأقوام حملات كثيرة متتالية نحو وسط وغرب أفريقية . ومن نسل هؤلاء تكونت قبائل لا زالت تعيش حتى اليوم حول بحيرة شادو فى دارفور ووادای وشمال السنغال ونهر النيجر

٩ — وفى القرن الحادى عشر أيضاً نشأت فرقة المرابطين . وعلى أيديهم اعتنق سكان سينيغمبيا Senegambia ونيجريا الاسلام

١٠ — وتلت دولة المرابطين دول كثيرة كدول الموحدين والحفصيين وغيرهم ، وكانت كل دولة تبدأ حكمها بنشر مذهبها الدينى ، وبالتالي كانت تدفع كثيراً من البربر أثناء نشر دعوتها إلى اعتناق الاسلام

١١ — وفى عهد الملك السعدى السادس «المنصور الذهبي» وصلت مراكش إلى أقصى قوتها ، وشملت مملكة نيجرية واسعة

١٢ — وفي نهاية القرن الخامس عشر قامت فى مصر العليا وغرب السودان أسرة مسلمة زنجية . وتولى أحد هؤلاء الزنوج الحكم ، واتخذ تمبكتو حاضرة للملك . ومنذ ذلك الحين أصبحت هذه المدينة مركزاً علمياً وتجارياً لغرب ووسط أفريقية . ولقد أثرى حفيد هذا الملك «إسحاق بن سوكيا» Ishak bin Sokya وزادت قوته وبدأ النزاع بينه وبين الامبراطور المورى moorish

أبي العباس المنصور . وتمكن الجيش المورى بقيادة جودر باشا Juder Basha من هزيمة إسحاق والاستيلاء على تمبكتو . وأتى بعد جودر قائد آخر أكثر شجاعة وإقداماً منه وهو «محمود باشا» فأتم الفتح المورى للسودان حتى وصل إلى بورنو Bornu وسنيغمبيا . ولم تتضاءل قوة الموريين إلا في القرن الثامن عشر بعد قيام النولا وهجوم الطوارق

ويقول جونستون : « ولربما كانت مراكش تستطيع أن تغزو شمال أفريقية وتحكمه فى القرن السادس عشر — لولا أن وصلها الترك ... » [1] — ونحن لا نستطيع أن نقر جونستون على هذا القول ... إلا إذا كانت الحكومة القائمة فى مراكش حينذاك قوية تستطيع أن ترد اعتداء الغرب عنها ... ولكن الحقيقة أن الحكومة فى كل بلاد المغرب فى ذلك الوقت كانت ضعيفة أمام نشاط ممالك غرب أوروبا وخاصة أسبانيا — فإنها بعد أن قضت على دولة الإسلام فيها سعت وراءه تطارده فى شمال أفريقية وغربها ... وجونستون نفسه يقول : « ولما استنجد أهل الجزائر وتونس بقراصنة الترك ضد اعتداءات مسيحيي اسبانيا في القرن السادس عشر — انتهز سلطان الترك الفرصة وأنشأ مناطق تركية في الجزائر سنة ١٥١٧ وفى تونس سنة ١٥٧٣ وفى طرابلس سنة ١٥٥١ ... »

فمن هذا القول نرى أن ثورة الغضب المسيحى فى اسبانيا على المسلمين لم تكن قد هدأت ؛ بل إننا لنحسها بين ثنايا كلمات جونستون قوية ملتهبة دفعت أهل المغرب للاستنجاد بالترك ورضوا نجدة القراصنة منهم . وحقيقة أن الترك الذين نزلوا بشمال أفريقية كانوا قراصنة لم يتعدوا الشاطىء إلى الداخل ، ولم يضموا إليهم أراضى وملكا جديداً بل اكتفوا بمهنتهم القرصنة وسلب سفن المسيحيين . ولو أنهم حاولوا ملكاً فى الجنوب لاستطاعوه ، ولغدت أفريقية الشمالية كلها مسلمة اسلاماً حقاً متصلاً بالعالم الخارجى الآن ، ولكنهم على كل حال حموا شمال أفريقية من الغرب الساحق الماحق هذه المدة الطويلة . وها نحن أولاء نسمع كل يوم عن اضطهاد الطليان والفرنسيين والاسبان للمسلمين فى طرابلس وتونس والجزائر ، ومع هذا فإن الإسلام في ذلك الحين لم تقف موجة انتشاره ، بل كان مجرد الجوار أو الاتصال بين المسلمين والوثنيين فى جميع قبائل السودان حتى حدود الكمرون — كان مجرد الاتصال كافياً لنشر الإسلام فى تلك الجهات كما سنرى بعد

لم تخضع مراكش كجاراتها للحكم التركي ولكنها تأثرت بنواح تركية مختلفة ، فقد أخذت عن الترك نظام الملبس ونظام تعبئة الجيوش ولقب الباشا وغير ذلك من الأمور ، ولكن مراكش بقيت مستقلة ، بل لقد أعلن حاكمها المنصور نفسه خليفة سنة ١٥٣٨ بعد انتصاره على البرتغال وبعد أن رأى الخلافة العباسية تنقرض من مصر ، وتنتقل إلى تركية

غير أننا سنرى أن نوع الحكم لم يكن له من التأثير قدر ما كان للثقافة الاسلامية العربية ، فمهما انتقل الحكم إلى أيدى الترك أو الإغريق أو السلاف أو الزنوج المستعربين فإن الأثر الإسلامى والثقافة الإسلامية امتدت حتى شملت كل شمال أفريقية والسومال وسناو ونوبيا وكردفان ودارفور ووادای وبورنو وأراضي الحوصا والصحراء ومعظم سينغمبيا وآفاقاً متسعة داخل حدود النيجر وعلى طول شواطىء القلتا Uollta الأعلى كما اعتنق أهالى كل تلك الجهات الدين الجديد : دين الإسلام

جهات نجهلها

ولقد كنت أحس عند قراءتى عن هذه المناطق لذة غريبة فلقد كنت أكشف لنفسى الأستار عن آفاق واسعة شاسعة من العالم الإسلامى يجهلها معظم المصريين وتجهلها برامج تعليم التاريخ في مدارسنا المصرية ، ولكننا بعد هذا التمهيد نستطيع أن نصور الحالة التى كان عليها كل شمال أفريقية فى هذه الكلمات :

كانت موجة التأثير الإسلامى تتسع طوال العصور الوسطى فتشمل كل يوم آفاقا جديدة من شمال أفريقية ، وامتدت الموجة فشملت بعض العصور الحديثة ؛ ولكن أوسع حلقة من حلقات هذه الموجة وآخرها تلاشت بانتهاء القرن التاسع عشر ، وبتلاشيها تركت البربر المستعربين يحكمون شمال وشمال غرب أفريقية ، والترك المسلمين يحكمون شمال شرق أفريقية ، والزنوج المستعربين يحكمون النيجر والسودان الأوسط ، وبعض العرب يحكمون النيل الأعلى وساحل نوبيا ، وعرب عمان واليمن وحضرموت يحكمون ساحل أفريقية الشرق . وامتد نفوذهم إلى الداخل حتى وصل إلى إقليم البحيرات والكنغو الأعلى

(١) الكتاب السالف الذكر ص ٦٩

ولنتحدث الآن عن أثر الإسلام فى بعض هذه الولايات كمثل للولايات الأخرى ؛ وليكن حديثنا عن نيجريا والسودان الأوسط

حضارة جديدة

كان لدخول الاسلام فى أفريقية تأثير هام على سكانها وخاصة فى السودان الغربى . ولم يقتصر تأثير الاسلام على التغيير الواضح الذى أحدثه فى الأهلين من الناحية البشرية ، بل لقد حمل معه إلى هؤلاء الأقوام حضارة جديدة منحت الأجناس الزنجية أخلاقاً وثقافة لازالت تميزهم فى حياتهم السياسية ونظمهم الاجتماعية . ولقد رأينا كيف أن كثيراً من الهجرات القبلية العديدة خلال ألف السنة الأخيرة حدثت تحت ضغط الاسلام ضغطاً مباشراً أو غير مباشر ؛ بل إننا لنرى أن ثورة الفولانى السياسية فى القرن التاسع عشر ودخول الكانمبو Kanembo إلى بورنو كان تحت تأثير الاسلام . ولقد كان للاسلام كذلك تأثير عميق فى لغات نيجريا الرئيسية ، فمعظمها تحوى كثيراً من الألفاظ العربية التى لاتزال تستعمل حتى اليوم

***

والاسلام الآن دين السواد الأعظم من سكان أرض حوصا Hausa Laud وبورنو Bornu بل لقد نفذ الاسلام إلى كثير من القبائل الوثنية التى لم يصلها التبشير المسيحى بعد ، وكما أن الاسلام دخل فى هذه الجهات من الشمال فان الشمال أشدها وأكملها إسلاماً — وإن كان الاسلام فى نوبيلاند Nupeland ويوروبالاند Yorubaland له نصيب كبير من القوة والانتشار ومع هذا فهناك مساحات شاسعة لم يدخلها الاسلام بعد

ونحن لانعرف إلا قليلاً عن حالة المسلمين خلال القرون السابقة لجهاد الفولانى . ولو أننا وثقنا بأقوال ليو الأفريقى Leo Africanus فإن أهالى كاتسينا Katsina وكانو Kano كانوا برابرة نصف عراة فى منتصف القرن السادس عشر . وعلى الجملة فالحوصا قد يكونون أيسر قيادة وأسرع تأثراً بالدعوات الدينية من غيرهم . وفى سنة ١٨٠٤ وضع الشيهو عثمان Shehu Osman (قد تكون شاه أو شيخ ثم حرفت) لبلاط جوبير Gobir نظاماً هو خير قليلاً من النظام الوثنى ، وقد بقى الأهلون يصلون للموتى ويمجدون الأولياء الراحلين ويسمحون لنسائهم بالخروج سافرات .

ولقد لاحظ « أولدفيلد Oldfield » فى رابا Rabba أن ابنة عثمان زايكى Osman Zaiki حاكم نوبيلاند الفولانى تحمل فى يديها زجاجات برتغالية مملوءة بالمشروبات الروحية ، فشرب الخمر وعقيدة الخلود لازلا سائدين

ولا زالت بعض الطقوس الوثنية تقام عند تولية الأمير العرش؛ ورؤساء « اكوين Akuain » المسلمون فى هارداوا Hardaua عند انتخابهم يقدمون فروض الطاعة للشجرة المقدسة

والقرآن لديهم هو الكتاب المقدس ؛ بل إنهم ليستشفون بشرب الحبر الذى كتبت به آيات القرآن . وهم مازالوا يعتقدون فى السحر والتعاويذ ، ولكنهم يتقون شر السحر بالآيات القرآنية والأحجبة يحيطون بها رقابهم وأذرعتهم وأوساطهم

والمسلمون فى تلك الأقاليم عند بناء منازلهم يدخنون الطلاسم لتقيهم شر الأرواح الخبيثة

من هذا كله نرى أن الاسلام من الناحية الروحية لم يستطع تماماً استئصال شأفة الوثنية أو إزالة خرافاتها لانقطاع الصلة وبعد الشقة بينه فى تلك الجهات وبين ديار الاسلام القوى الحق . ولكن الاسلام من الناحيتين السياسية والاقتصادية بادى الأثر فى هؤلاء الأقوام . لقد حمل الحضارة إلى هذه القبائل المتبربرة ، ودعا جماعات الوثنيين المبعثرة إلى وحدات مرتبطة ، وسهل التجارة بين هذه المناطق وبين العالم الخارجى ، وبذلك استيقظت الغرائز التجارية الكامنة فى نفوس الحوصا Hausa والنوبى Nupe والياروبا Yaroba والبرى برى Beri Beri . ؛ وحملهم على الظهور بمظهر لائق ، ورفع مستوى معيشتهم بأن خلق لهم جواً اجتماعياً راقياً ؛ وبث فى نفوس المسلمين الشعور بالعزة واحترام النفس والغير . فتفوق المسلمين فى تلك الجهات على غيرهم من الناحيتين الثقافية والسياسية يرجع إلى تعاليم دينهم ؛ فنحن لا ننسى أن الاسلام حمل إليهم فن القراءة والكتابة ...

والآن أصبح زنجى السودان بعد أن حرم عليه الاسلام شرب الخمر وأكل لحوم البشر وسفك الدماء رفيقاً لسكان العالم المتحضر

جمال الدين محمد الشيال

(البقية فى العدد القادم)

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٢٥٩ — فافشر ماشئت

فى (الغيث المسجم) للصفدى : حكي أن بعض الوعاظ كان على منبره يتكلم فى المحبة وأمور العشق وأحواله ، ومد أطناب[1] الإطناب[2] في ذلك فقام إليه بعض الجماعة وقال :

بعيشك هل ضممتَ إليك ليلى   قبيل الصبح أو قبّلتَ فاها
وهل رفّت إليك فروعُ ليلى   رفيفَ الأقحوانة فى نداها[3]

فقال الواعظ : لا والله

فقال له : فافشر[4] ماشئت ...

٢٦٠ — تغزل برجليها

قال ابن الجوزى فى الشذور : قال ثابت بن سنان المؤرخ : رأيت فى بغداد امرأة بلا ذراعين ولا عضدين ، ولها كفان بأصابع معلقات فى رأس كتفيها لاتعمل بهما شيئاً ، وكانت تعمل أعمال اليدين برجليها ، ورأيتها تغزل برجليها ، وتمد الطاقة[5] وتسويها

٢٦١ — وإنه لمفوه

كن للمكاره بالعزاء مُقَنَّعاً   فلعلّ يوماً لاترى ماتكرهُ[6]
فلربما استتر الفتى فتنافست   فيـه العيون وإنه لموّهُ
ولربما خزن الكريم لسانه   حذرَ الجواب وإنه لمفوّهُ
ولربما ابتسم الكريم من الأسى   وفؤاده من حرّه يتأوّهُ

٢٦٢ — ألله ، ألله

قيل لصوفي : لم تقول : ألله ، ألله ، ولا تقول : لاإله إلا الله ؟

فقال : نفيُ العيب حيث يستحيل العيب — عيب

٢٦٣ — بين اماميں

قال الحريرى : قد غلط الأصمعى فى تصغير (مختار) غلطاً أودع بطون الأوراق ، وتناقلته الرواة فى الآفاق ؛ وذاك أن أبا عمر الجرمي حين شخص إلى بغداد ثقل موضعه على الأصمعي إشفاقاً من أن يصرف وجوه أهلها عنه ، وتصير السوق له ، فأعمل الفكر فيما يغض منه فلم ير إلا أن يرهقه فيما يسأله عنه ، فأتاه فى حلقته ، وقال له : كيف تنشد قول الشاعر :

قد كن يخبأن الوجوه تسترا   فاليوم حين بدأن للنظار[1]

أو حين (بدين) ؟ فقال له : (بدأن) قال: أخطأت ، فقال (بدين) قال : غلطت ، إنما هو حين (بدون) أى ظهرن ؛ فأسرها أبو عمر فى نفسه وفطن لما قصده ، واستأنى به إلى أن تصدر الأصمعى فى حلقته ، واحتف الجمع به ، فوقف به وقال له : كيف تقول فى تصغير (مختار) فقال : (مخيتير)[2] قال : أنفت لك من هذا القول ! أما تعلم أن اشتقاقه من الخير وأن التاء فيه زائدة ؟ ولم يزل يندد بغلطه ويشنع به إلى أن انفض الناس من حوله

٢٦٤ — الا الماء

سئل جحظة البرمكى عن دعوة حضرها فقال : كان كل شيء بارداً فيها إلا الماء

٢٦٥ — غنه عنى

فى (الأغانى) : وَلِيَ قضاء مكة الأوقص المخزومي فما رأى الناس مثله فى عفافه ونبله ، فانه لنائم ليلة فى جناح له إذ مر به سكران يتغنى :

---

(١) الطنب : بضم الطاء والنون وسكون النون حبل طويل يشد به البيت : الخباء

(٢) الاطناب : المبالغة فى مدح أو ذم

(٣) رف : اهتز نضارة وتلؤلؤاً (الفرع) الشعر التام . ورواية الأغانى : قرون ! والشعر للمجنون . وهناك هذه (الرواية) : مر المجنون بزوج ليلى وهو جالس يصطلى فى يوم شات فوقف عليه ثم أنشأ يقول : (بربك البيتين) فقال : اللهم إذ حلفتنى فنعم ، فقبض المجنون بكلتا يديه قبضتين من الجمر فما فارقهما حتى سقط مغشياً عليه ، وسقط الجمر مع لحم راحتيه ، وعض على شفته فقطعها ...

(٤) الفشار والتفشير (أيضاً) فى كلام الأدباء وكتبهم كثير

(٥) طاقة الشعر أو الخيوط

(٦) مقنعا : مستمسكا ، من تقنع البطل بسلاحه : رجل مقنع مغطى بالسلاح (التاج) عن الأصمعى : حلف بعضهم بالطلاق الثلاث إن كانت العرب قالت أحكم من هذه الأبيات

(١) من أبيات فى (الحماسة) للربيع بن زياد فى رثاء مالك بن زهير العبسي وهناك : حين برزن للنظار

(٢) فى كتاب سيبويه : فاذا حقرت (مختارا) قلت مخير وإن شئت قلت : مخير لأنك لو كسرته للجمع قلت : مخاير ومخايير

عوجي علينا ربَّة الهودج (1)

فأشرف عليه فقال: يا هذا، شربت حراما، وأيقظت نياما، وغنيت خطأ! خذه عني! فأصلحه وانصرف

٢٦٦ — ردوها علي

في (الغرر الواضحة) أُرْتِجَ على الحجاج في صلاته فلم يجسر أحد أن يهديه لما ضل عنه، فتلا قوله تعالى «رُدُّوها عليَّ» فردت عليه. فلله دره! ما أحسن ما أجال فكره حتى أدرك به الفهم العازب، ولم تبطل صلاته بكلامه. قيل للحسن (البصري): أتى رجل صاحباً له في منزل، وكان يصلي فقال: أدخل؟ فقال في صلاته «أدخلوها بسلام آمنين» فقال الحسن: لا بأس

٢٦٧ — زلق وقع في الطين

في (صيد الخاطر) لابن الجوزي: مازال المتيقظون يأخذون الاشارة من مثل هذا (2) حتى كانوا يأخذونها من هذا الذي تقوله العامة ويلقبونه بـ (كان وكان) فرأيت بخط ابن عقيل عن بعض مشايخه الكبار أنه سمع امرأة تنشد:

غسلت له طول الليل ... فركت له طول النهار
خرج يعاين غيري ... زلق وقع في الطين

فأخذ من ذلك إشارة معناها: يا عبدي إني حسنت خلقك وأصلحت شأنك، وقومت بنيتك، فأقبلت على غيري فانظر عواقب خلافك لي. وقال ابن عقيل: وسمعت امرأة تقول من هذا (الكان والكان) وكان كلمة بقيت في قلقها مدة:

كم كنت بالله أقل لك ... لذا التواني غائلة
وللقبيح خميرة ... تبين بعد قليل

قال ابن عقيل: فما أوقعه من تخجيل على إهمالنا لأمور غدا تبين خمائرها!

٢٦٨ — المتنبي الأول

في (المختلف والمؤتلف) للآمدي: كان الأخطل الضبعي شاعراً، وادعى النبوة، وكان يقول: لمضر صدرُ النبوة ولنا عجزها. فأخذه عمر بن هبيرة فقال ألست القائل:

(1) للعرجي، والعجز: إنك إلا تفعلي تحرجي
(2) أي من شعر أو قول يسمعونه فينتفعون به

لنا شطر هذا الأمر قسمة عادل ... متى جعل الله الرسالة تُرْتَبا (1)

قال: وأنا القائل:

ومن عجب الأيام أنك حاكم ... علي، وأني في يديك قصير (2)

قال: أنشدني شعرك في الدجال (3). قال: اغرب ويلك! فأمر به فضربت عنقه

٢٦٩ — فرجت وكان يظنها لا تفرج

في (الغرر والدرر): أمالي أبي القاسم المرتضى: روي الصولي أن منشداً أنشد ابرهيم بن العباس وهو في مجلسه في ديوان الضياع:

ربما تكره النفوس من الأمر ... له فرجة كحل العقال (4)

قال: فنكت بقلمه ثم قال:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ... ذَرْعاً، وعند الله منها مخرج
كملت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكان يظنها لا تفرج (5)

فعجب من جودة بديهته

٢٧٠ — وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

في (مؤنس الوحدة) لابن الأثير:

أهدى إلى سيف الدولة صدقة بن منصور بن مزيد كتاب ففتحه لينظر فيه، فوقعت عينه منه على هجاء بني أسد فأطبقه ثم قال:

وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

اصلاح

في النقلة (٢٥٠) في البيت الثاني: (وكيف) والصواب: (كيف)

(1) أى راتبة فى واحد. في اللسان والتاج: أمر ترتب على تفعل (بضم التاء وفتح العين) أى ثابت. وتاء ترتب الأولى زائدة
(2) محبوس
(3) مسيلمة وفيه يقول الأخطل الضبعي:
لهفاً عليك أبا ثمامة ... لهفاً على ركني شمامه
كم آية لك فيهم ... كالبرق يلمع في غمامه!
والأحنف يقول فيه: ليس بنبي صادق ولا متنبئ حاذق
(4) فرجة: كشفة، خلاص. وهى مثلثة كما فى التهذيب وفى اللسان والتاج وغيرهما بالفتح فى الأمر، وبالضم فى الحائط ونحوه. والبيت منسوب الى كثيرين منهم أمية بن الصلت
(5) المخرج فى ابن خلكان والبغدادى. (كملت) تمت. وفى ابن خلكان ضاقت، وفى هذا يقال: إنه ما ردد هذين البيتين من نزلت به نازلة إلا فرج الله تعالى عنه

غنى ... ؟! (١)

للأستاذ سيد قطب

غنيةٌ أنتِ بالتعبير قد ذَخَرَتْ ... أطواء نفسك منه زادَ أحقاب
وهبتِني منــه أشتاتاً منوَّعةً ... وزدتِني منه فى جود و إسهاب
فى كل جارحة عنوانُ ملحمة ... من الحديث ، وسرٌّ جدُّ جذّاب
تقصُّ تاريخها فى فنٍّ راوية ... منسقِ النبر ذى لحن و إطراب
و إن تاريخها أقصوصة جمعتْ ... تجاربَ الكون فى أحلام أرباب

تجارب الكون فى سحر وفى فتنٍ
من نضرة الروض أو من وحشة الغاب
ومن سناء الدرارى فى تألقها
ورهبة الكون فى جنح الدجى الخابى
ومن غموض الصحارى فى مجاهلها
والعيلم الرحب يطغى جد صخّاب

ومن صِيالِ الضوارى في تقحمها ... ومن أغاريد أطيارٍ وتَنْعَابِ
وفرحة الظافر النشوان خافقة ... تختال معجبةً فى خطو وثّاب

* * *

هذا حديثك بينا أنت صامتةٌ ... وعيته كلَّه فى صمت محراب
فهل بلغتُ مدَى ما أنت زاخرةٌ ... من التجارب فى خلق و إنجاب؟
لا. لاوحقك لم أبلغْ سوى طرفٍ ... من الحديث على وَفْر و إطناب
وخلف ذلك كنز كله طُرَفٌ ... يزيد مذخورُه فى كف وهّاب
و إن عندك ما تعطينه أبداً ... للسائلين بإفصاح و إغراب

* * *

العين. ماذا تقص العين من خبرٍ ... مسلسلٍ في حنايا النفس منساب؟
وما الذى أبدعت للفن إذ همست ... للأمنيات فلبَّتْ بضع أسراب ؟

وأفصحت عن حنين كامنٍ وهوى
يسرى الهوينى شَفُوفاً بين أهداب ؟

* * *

والثغر . ماذا يبث الثغر من قُبَلٍ
فى صمته العذب ، بل فى سحره السّابى
و إن فيه لقبلاتٍ قد ارتسمت ... من بعدما نضجت، لِلاّثم الصابى

* * *

والجسم . ماذا يقول الجسم قد خفقت
فيه الحياة ، وتاهت تيهَ غلاّب ؟
يقول ما تعجزُ الدنيا برمتِّها ... عن أن تقول بتصوير و إعراب

* * *

خلاصة أنت من فن الحياة حوت ... جميع ما تبدع الدنيا لإعجاب
غنية أنت بالتعبير قد ذخرت ... أطواء نفسك منه زاد أحقاب

(حلوان) ... سيد قطب

يأس

للسيد جورج سلستى

ياحبيبَ الفؤادِ أسرفتَ فى الصدِّ ... و إنى من غير صدٍّ أذوبُ !
وَتَجَنَّيْتَ ياحبيبى ومِن غيـــر تجنٍّ تكادُ روحى تَزهقْ !
شفَّ جسمى النوى فبتُّ ولى جســـمٌ بخيطٍ من الدِّماء مُعلَّقْ !
فترفَّقْ فَدَتْكَ روحى فـالى ... بين كل الورى سواكَ حبيبُ !

* * *

ياحبيبى أُحسُّ من ألم البُعــــد وشَجْوِ النوى بقلبىَ يبكى
و بصدرى المكبوت أرمضَه الحبُّ ... فأَدمي منهُ الحنايا الحِرارا
و برأسى كأنما سَوْرَةُ اليأْ ... سِ أطاحتْ بلبّه فاستطارا
يالقلبي الباكي وصدرى المدمَّى ... من حبيبٍ قضى بهجرى وتركى!

* * *

إيه يا هاجرى جراحى تناديــكَ وقلبى اللهيفُ يهفو إليكا !
كلُّ مابى يدعوكَ فارجعْ بحقِّ الـــوفا إليَّ قبل وفاتى (١)
عُدْ ولو ساعةً أُمتعُ عينيَّ ... بضاحى مرآكَ قبل مماتى
ذاك حسبى من الحياة ودعنى ... بعد هذا أموتُ بين يديكا !

جورج سلستى

(١) من ديوان « أصداء الزمن » يصدر أول ديسمبر

(١) كذا

من طرف أهل الحرف

ذكرتني مقالة الأديب البحاثة الأستاذ مصطفى جواد البغدادي (الأدباء المحترفون) وما رواه فيها من سيرة (الخبزأرزي) وشعره بإخوان له في الأدب والحرفة ، فرأيت أن أملي بعض طرائفهم مضافاً إلى تلك المقالة البغدادية في (الرسالة الغراء) :

قال علي بن ظافر : كان الوزير أبو بكر بن عمار كثير التطلب لما يصدر عن أرباب المهن من الأدب الحسن فبلغه خبر (ابن جامع الصباغ) فمر على حانوته وهو آخذ في صناعة صباغته ، والنيل قد جر على يديه ذيلا ، وأعاد نهارها ليلا ، فأراد أن يعلم سرعة خاطره، فأخرج زنده ويده بيضاء من غير سوء وأشار إلى يده وقال:

كم بين زند وزند ؟

فقال ابن جابر :

ما بين وصل وصد

فعجب من حسن ارتجاله . ودخل ابن عمار هذا سرقسطة فبلغه خبر يحيى القصاب السرقسطي ، فمر عليه ولحم خرفانه بين يديه ، فأشار ابن عمار إلى اللحم وقال :

لحم سباط الخرفان مهزول

فقال يحيى :

يقول للمفلسين : مه ، زولوا

وكان يحيى السرقسطي ترك مهنته مدة ثم عاد إليها فكتب إليه الوزير أبو الفضل بن حسداي :

تركت الشعر من عدم الاصابه ... وملت إلى الجزارة والقصابه

فأجابه يحيى :

تعيب علي مألوف القصابه ... ومن لم يدر قدر الشيء عابه(1)
ولو أحكمت منها بعض فن ... لما استبدلت منها ذي الحجابه(2)
وإنك لو طلعت علي يوماً ... وحولي من بني كلب عصابه
لهالك ما رأيت وقلت هذا ... هزبر صير الأوضام غابه
فتكنا في بني العترى فتكا ... أقر الذعر فيهم والمهابه
ولم نقلع عن الثوري حتى ... مزجنا بالدم القاني لعابه
ومن يعتز منهم بامتناع ... فإن إلى صوارمنا إيابه(3)
ويبرز واحد منا لألف ... فيغلبهم وتلك من الغرابه
وحقك ما تركت الشعر حتى ... رأيت البخل قد أوصى صحابه
وحتى زرت مشتاقاً حميمي ... فأبدى لي التجهم والكآبه
وظن زيارتي لطلاب شيء ... فأقصاني وغلظ لي حجابه

وكان مظفر الذهبي مصوراً ؛ ومن قوله :

كلفت بتصوير الدمى في شبيبتي ... وأتقنتها إتقان حر مهذب
وحاولت عنها رجعة ومدحتكم ... فلم أخل من تزويق زور مكذب

وكان نجم الدين يعقوب بن صابر منجنيقياً ؛ ومن شعره :

كلفت بعلم المنجنيق ورميه ... لهدم الصياصي وافتتاح المرابط
وعدت إلى نظم القريض لشقوتي ... فلم أخل في الحالين من قصد حائط

قال ابن خلكان : كان ابن صابر المنجنيقي جندياً في ابتداء أمره ، مقدماً على المنجنيقيين ببغداد ، ولم يزل مغرى بآداب السيف وصناعة السلاح والرياضة ، ولم يلحقه أحد من أهل زمانه في فهمه لذلك ، وصنف كتاباً سماه (عمدة السالك في سياسة الممالك) يتضمن أحوال الحروب وتعبئتها وفتح الثغور وبناء المعاقل ، وأحوال الفروسية والهندسة والمصابرة على الحصار ، والقلاع والرياضة الميدانية ، والحيل الحربية الخ ؛ وكان شريف النفس متواضعاً ، وهو شاعر مجيد ذو معان مبتكرة ، وجمع من شعره كتاباً سماه (مغاني المعاني) وكانت له منزلة لطيفة عند الامام الناصر ، توفي سنة ٦٢٦ . ولابن صابر :

قالوا بياض الشيب نور ساطع ... يكسو الوجوه مهابة وضياء
حتى سرت وخطاته في مفرقي ... فوددت ألا أفقد الظلماء
وعدلت أستبق الشباب تعللا ... بخضابها فصبغتها سوداء
لو أن لحية من يشيب صحيفة ... لمعاده ما اختارها بيضاء

ومن الأدباء المحترفين السراج الوراق وأبو الحسين الجزار ونصير الدين الحمامي . قال ابن حجة في (خزانته) : «وتعاصر السراج هو وأبو الحسين الجزار والنصير الحمامي وتطارحوا كثيراً وساعدتهم صنائعهم وألقابهم في نظم التورية» ومن قول السراج الوراق :

ياخجلتي وصحائفي سود غدت ... وصحائف الأبرار في إشراق
وموبخ لي في القيامة قال لي : ... أكذا تكون صحائف الوراق ؟!

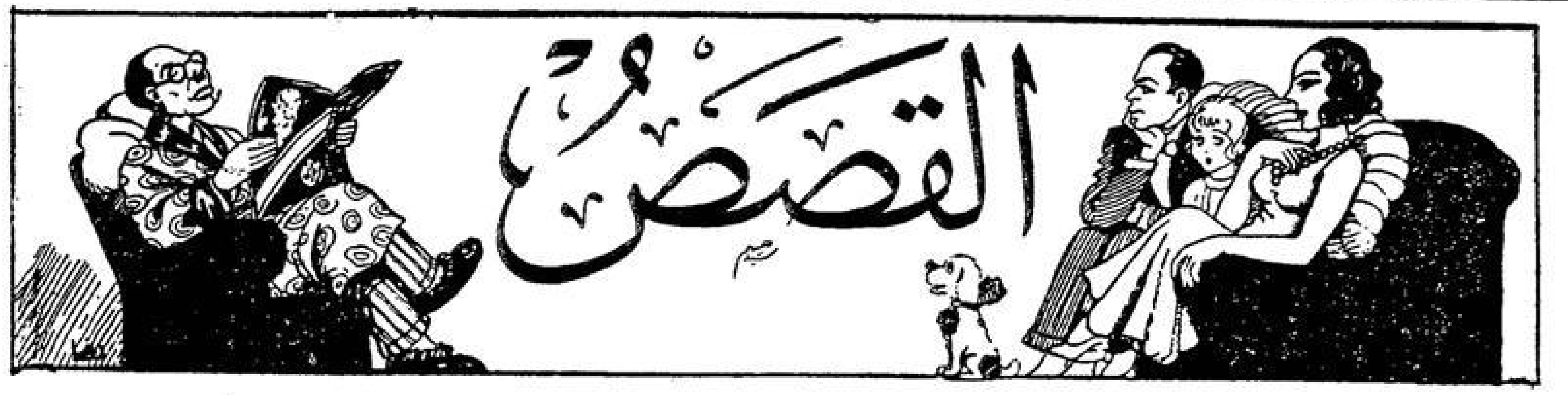
وقال الجزار :

كيف لا أشكر الجزارة ماعشـ ... ـت حفاظاً وأرفض الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيـ ... ـني وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وكتب إليه نصير الدين الحمامي :

ومذ لزمت الحمام صرت به ... خلا يداري من لا يداريه

(1) تعيب علي الخ : أراد تنعي علي
(2) الحجابة في الأندلس بمنزلة الوزارة (3) يغتر في رواية



من أساطير الإغريق

مصرع بروكريس

للأستاذ دريني خشبه

رأته أورورا حينما كان الصبح يتنفس أنفاسه الندية العطرية يثب فوق الجبال ويصيد الوحوش بين الأدغال ، فهامت به ، ووقفت تعبده ، وتروى من جماله ، وتسقى نفسها الصادية أبداً إلى كل ريان مفتان ... وحاولت أن تكلمه فشاح بوجهه ، وتصدت له فأعرض عنها ، ثم انطلق فى أثر ظبي فلم يزل به حتى أرداه وانحنى يحمله ... ولكنه وجد مكانه أورورا ... ! وجدها متجردة تُمرّغ جمالها تحت قدميه ، فنفر نفرة جرح بها كبرياء ربة الفجر الوردية ، وجعلها ترمقه بعيني أفعي ، تودلو تنفث في صدره سمها فترديه

« أنا أورورا ، ربة الفجر والندى ، حبيبة الزنبق والبنفسج والورد ، لا أروق هذا الأنسيّ المخلوق من تراب !! وحق أبى لآسرنه ولأسجننه ، ولأجعلنه يتلوى تحت قدمى ، ويبكى من أجل قبلة أمن بها عليه ! »

وأرسلت رُقية من رُقاها الساحرة فنشرت الظلام على عينيه والنسيان في قلبه ، وبات لا يملك لنفسه حلاً ولا عقداً ... ثم حملته إلى كِناسها [1] فى شعاف الأولب ، وحبسته ثمة ، وأذهبت عنه طائف السحر فأدرك ووعى ، وهب مذعوراً ، ثم غرق فى شيء كالحلم لما رأى العماد من ذهب ، والطنافس من عجب ، والكأس حفها الحبب ، والنّدامى والطرب ، وكل راقصة كالخيال يراقصها أمرد كالطيف ، فتميل وتختال ، ويتأوّد كالسيف ... وأورورا مع هذا وذاك تدل وتتبرج ، وتفوح وتتأرج ، كأنها ربيع بأكمله ، زخرف الدنيا بالزهر ، ووشاها بالروض ، وابتعث فيها المرح والحياة

— أين أنت إذن ؟ سيفال ! أين أنت ؟

— أين أنا ؟

— ألا تعرف ؟ هذه غُرُفات الأولب !

— الأولب ؟ !

— أجل ... أولب أربابك

— محال ! لن يكون الأولب هكذا !

— ولِمَ ؟

— لأن الأولب مأوى الصالحين ! أليس الآلهة أجدر منا بالتقوى ؟ ما هذا ؟ أخمر ورقص وطرب ... وفسق فى الأولب ؟ لا ... ليس هذا الأولب ... لن يكون الأولب هكذا ! !

— بل هو الأولب يا سيفال ! وليس ما ترى هنا إلا قليلا

(١) الكناس بالكسر بيت الظبي

أعرف حر الأشيا وباردها وآخذ الماء من مجاريه

فأجابه أبو الحسين الجزار :

حسنُ التأتى مما يعين على رزق الفتى والحظوظ تختلف [1]

والعبد مذ صار فى جزارته يعرف من أين تؤكل الكتف

وفى (كتاب المغرب في حلى المغرب) : حضر الجزار بين يدى الصاحب الكبير كمال الدين بن أبي جرادة مودعاً وقد أزف رحيل الصاحب عن مصر سنة (٦٤٥) فاتفق أن وجه سلطان مصر شيئاً من التمر الذى يصل من أعلى الصعيد فى المركب المبشر بزيادة النيل على وجه البركة ، فأمر الصاحب أن يقدم فأكل الجزار فى جملتهم ، وقال فى ذلك ارتجالاً فأتى بأبدع تورية .

أطعمتنا التمر الذى للبركات قد حوى

لله ما أطيبه ! لو لم تشبه بالنوى

« الاسكندرية » (***)

(١) تأتى للأمر : ترفق له

مما هناك ! هل ترى ڤينوس ؟ ألم تصل لها ؟ أنظر من هذه الكوة فهى تطل على حديقتها !

— وأنا ما شأنى ؟ أريد أن أذهب !

— تذهب ؟ تذهب إلى أين يا سيفال ؟ لن تبرح عاكفاً على اللهو الذي ترى !

— لا ، لن يقوي الأولب كله على قهرى !

— ها . ها ... مضحك ... أنت مضحك يا سيفال ! كل الأولب ؟

— أؤكد لك !

— ولِمَهْ ؟

— لأنى أحب زوجتى وأقدسها ... إنها جميلة جدا

— أجمل من أورورا ؟ ! أليس كذلك ؟

— أجمل من أورورا لدى كل من ينظر بعينى زوج أمين مخلص!

— أنت عنيد يا سيفال ! إنك تزدرينى !

— بل أنا أنتصر للفضيلة التى كان ينبغى أن تتنزل علينا من الأولب ! من جاء بى هنا ؟

— أنا ...

— ولماذا ؟

— أنت تعرف !

— لا أعرف شيئاً ... والذى أعرفه لايليق بشرف ربة ! أرجو أن تطلقى سراحى !

— إذن أنت تفضل علىّ زوجتك ! أهي أجمل منى ؟ ألا تزال تعتقد هذا يا سيفال ؟

— أنا أفضل زوجتى لأنها لم تتلوث ... ولا زلت أقول إنها أجمل منك لأنني أنظر إليها بعينيّ لا بعينيك !

— زوجتك أجمل من ربة الفجر الوردية ؟

— أجمل من ربات الأولب جميعاً ، إلا من تجملن بمثل روحها ، ولست منهن !

— أيها التعس !

— ولم أكون تعساً وأنا أسعد الناس بزوجتي بروكريس!

— بروكريس! ها ! عرفتها ! إحدى وصيفات ديانا ! حقيرة مثلك ! أغرب من وجهى أيها القذر ! إذهب ! إذهب إلى زوجتك بروكريس التى تفضلها على أورورا ؛ ستتمنى يوماً أنك لم تعرفها ، وأنها لم تكن زوجتك ... إذهب ... إذهب ! »

***

وبلغ بيته وهو يلهث من التعب ، ويرتجف مما ألم به ، فلقيته زوجته الجميلة الحُسّان بابتسامة شفت صدره ، وقبلة ذات حُمَيّا أذهبت بعض ما وجد ... إلا أنه كان ينتفض آنة بعد آنة ، ويعود فيبتسم ، ثم تغرورق عيناه بدموع نقية كاللؤلؤ كلما نظر إلى زوجته ، حتى هجس وسواس فى قلب بروكريس فقالت له :

— ماذا يا سيفال ؟ أتخفى عنى ذات صدرك ؟

— كلا ، ولكنها أورورا ...

— ماذا ؟ ماذا صنعت بك ربة الفجر ؟

كانت تحاول أن تسحرني عنك ... أو ... تشركني فيك على الأقل ؟ !

— ... ؟ ...

ولكنها فشلت ... لقد أذللت كبرياءها

— وهل استطعت ؟ إنها جميلة وصناع ، ولها فى الغزل الصارخ أساليب خارقة يا سيفال ...

— لقد قهرتها وأساليبها ... إن قطرة من معين إخلاص تطفئ لظى جحيم يا بروكريس !

— لاريب يا حبيبي ... أنا أمزح فقط ... سيفال ، عندى لك مفاجأة طيبة

— مفاجأة ! أية مفاجأة يا بروكريس ؟

— تعال ... افتح هذه الغرفة

— أوه ! ماهذا ... كلب عظيم ، من أين يا بروكريس ؟ إنه سينفعنى كثيراً فى صيدى

— ومفاجأة أخرى أعظم ! أنظر فى ركن الغرفة !

— هه ! حربة ! لم أر قط مثل هذه الحربة ! إنها ليست من صنع بشر ! آه ! إنها من صنع ڤلكان لاشك ! البشر لايجيدون أن يصنعوا مثل هذه !

— إحزر إذن ممن الهديتان ؟

— من الملك !

— وأنى لي أن يهدى الملك إليّ ؟

— ممن إذن ؟

— إحزر !

— لا أدري !

— إنهما من ديانا يا سيفال ! أهدتهما إلى هذا الصباح !

— من ديانا ؟ آه ! لقد ذكرت ذلك أورورا ماذا ذكرت لك أورورا ؟

— أنك كنت إحدى وصيفاتها !

— وأى ضير علىَّ أو عليك فى هذا ؟ أليست هي إحدى تابعات أبوللو ؟ لقد كانت وما تزال تتمنى أن لو كانت إحدى وصيفات ربة القمر !

— لا ضير ، لا ضير يا بروكريس

— إنى أهب لك ما أهدت ديانا إلى !

— أشكرك !

— الكلب لا تسبقه الريح ، والحربة لا تخطئ الغرض

***

وظل سيفال يعود أصيل كل يوم إلى زوجته مثقلاً بشتى أنواع الصيد ؛ وأحب كلبه وحربته حباً لا يعدله إلاحبه بروكريس

واشتهر أمر الكلب فى الإقليم كله ، وذاع صيته ، حتى لقد أخطأ بعض افراد الشعب فى حق بعض الآلهة ، فسلط عليهم ثعلباً سَلقاً[1] لم يستطيعوا مكافحته ، ولم تقو كلابهم له على طراد ، فاجتاح ماشيتهم ، وأتى على دجاجهم ، وعاث فى حقولهم ، ونفش في زروعهم ؛ ولم يدروا كيف خلاصهم منه ، حتى سمعوا بكلب سيفال فرجوه فيه ، كيما يطلقه فى أثر الثعلب فيريحهم من شره ...

وانطلق ليلاب — وهذا هو اسم الكلب — وراء الثعلب ، كما يمرق السهم عن القوس ، أوكما تمرق النظرة الخاطفة عن العين النجلاء ؛ وما انفك يحاوره ويداوره ، وينبح به فيزلزله ، حتى همَّ أن يفتك به ويمزقه إرباً ... ولكن حدث أن كانت الآلهة تطلع من قلال الاولمب ، تتفرج بهذا الطراد ، وتشرح صدورها بمرآه ، فالتفت بعضها إلى بعض ، وعز عليها أن يقتل كلب إلهى ثعلباً إلهيًّا أمام الملأ من الناس ، فقضوا لِتوِّهم أن ينقلب الاثنان فيكونا تمثالين من المرمر الناصع ، فهما كذلك إلى اليوم ! !

وأسف سيفال على كلبه ، وانقلب على عقبيه غضبان صعقا ... ولم يزل فى كل يوم ، وفى مثل تلك الساعة التى حاقت بكلبه العزيز هذه النازلة ، يتوجه إليه ، ويقف قليلاً عنده ، حانًّا لذكراه ، آنًّا على ما حل به ، ثم ينطلق بعد ، وفي يده رمح ديانا ، فيصيد الظباء وليس معه ليلاب

وانطلق مرة فى إثر ظبى فأنهك قواه ، ونال منه الإعياء ، وانسدح على العشب الأخضر فى فَيْء دوحة باسقة ، ثم راح يتخلّج[2] من شدة التعب ؛ وكان الوقت ظهراً ، وكان القيظ قد أجج الدنيا حوله ، فتفصد[1] العرق من جسمه المنهوك ، وتراخت عضلاته ووهنت روحه ، وأنشأ يردد كلاماً كالأغنية يرسله هكذا :

أين أنت يا نسمة ؟ يا ابنة الربيع اللعوب
يا منعشة الروح المتعبة ، أين أنت ؟
هلمى يا نسْمة ، هلمى إلى سيفال ،
فهو مشوق إليك ، يرجو لو تنفسين عنه ؛
هلمى يا نسمة ففرجى عن سيفال المضنى ،
وهى على رأسه الملتهب ، وصدره المكروب؛
لقد كنت يانسمة ، ياأحلى قُبَل الحياة ،
تداعبين جبينى ، وتنعشين نفسى ،
فماذا حال بينك وبينى ، يا نسمة الربيع ،
وساقية الحب ، ورسول المحبين ...

وكانت أورورا ما تفتأ تتعقب سيفال فى كل فج ، وترقبه فى كل حنيّة ؛ وكانت تقف فى صورة بابل فوق رأسه ، مختبئة فى أفنان الدوحة التى نام فى ظلها ؛ فلما سمعته يتغنى غناءه ، ضحكت واستبشرت ، وانتهزتها فرصة نادرة للايقاع بينه وبين زوجته ، وانطلقت من فورها إلى بروكريس ، حيث تكشّفت لها فى صورة إحدى صويحباتها :

— بروكريس !

— مرحباً بأعز الحبيبات ، ماذا جاء بك فى هذا القيظ ؟

— نبأ أسود ما كنت أوثر أن أحضر إليك به !

— نبأ اسود ؟ ياالهول ! ماذا ؟

— أرجو ألا أثير سخطك على ...

— كلا ... كلا ... عجّلى أرجوك !

— سيفال !

— ماله ؟

— أتذكرين يوم رويتِ لى ما كان من أمره مع أورورا ؟

— لم أنس ! ولكن مال سيفال ؟

— يبدو لى أنى لم أكن مصيبة فى تبرئته ! لقد نفيت شكوكك فيم ذهبت إليه من الميل إلى ربة الفجر ، وقلاه لك لما عرف أنك كنت وصيفة ديانا !

— وماذا حدث بربك ؟

— إنه يحب فتاةً اخري اسمها نَسْمة ! إنه مولع بها أشد الولوع !

(١) السلق : الذئب واستعمل هنا صفة

(٢) يشكو من التعب ويضطرب

(١) جرى وتصبب

— لا أصدق !

— لاتصدقين ؟ وهل أنا كاذبة ؟

— وكيف عرفت ؟ هل أوحىَ إليك ؟

— بل سمعته يهتف باسمها ، ويشدو بحبها ، ويتغنى أحر الغناء !

— لا أصدق ، لا أصدق ، سيفال لايحب واحدةً سواى !

— هل لك فى أن تسمعي غناءه بأذنيك ياصديقتى !

— وأين هو ؟

— قريب من الدَّغل الذى عند النبع ... سأحضر لك حصاناً صافناً

وغابت أورورا ، ولم تلبث طويلاً ، بل عادت بعد هنيهة ومعها حصانان مطهمان ، ركبتاهما وأسرعتا إلى الدغل ... وكان فؤاد بروكريس يخفق كالعاصفة ، وكان وجهها قد شحب وامتقع حتى صار كالليمونة ، وكانت ألف فكرة تزحم رأسها وتثور فيه كالبركان ، وكانت ما تنفك تحدث نفسها بالهواجس فتقول : « نسمة ؟ ترى ما نسمة هذه ؟ عروس من عرائس البحر ؟ أم غادة من غيد السوق ؟ أم ربة كأورورا من ربات الأولب ؟ أهي جميلة ؟ أهي أجمل مني ؟ ألها عينان كعيني ؟ ألها روح تستطيع أن تمتزج بروح سيفال بقدر ما امتزجت به روحى ؟ أهكذا ياسيفال ؟ لقد غلبت اليقين على الشك يوم أن ذكرت لى أمر أورورا معك ، فلم تعد الشكوك لتفترسني ؟ يا ترى ؟ ألست تعود إلىّ أصيل هذا اليوم مثقلاً بصيدك كسابق دأبك ؟ حنانيك يا آلهة السماء ! » فكانت زفراتها لا تخفى على أورورا ، فكانت هذه تسليها وتواسيها

واقتربا من الدوحة التي نام تحتها سيفال وراح يغنى ... وأشارت أورورا إلى الزوجة البائسة فاختبأت فى الحشائش الطويلة القريبة من سيفال ، بعد أن تركت جوادها بعيداً من المكان ... وهناك أنصتت بكل سمعها وقلبها ، فسمعت زوجها ما يزال يتغنى باسم نسمة ويقول :

يا نسمة إلامَ أهتف بك يا نسمة !

يا نسمة يا أحب شيء فى هذا الحرور !

تعالى قبّلى خدّىّ ووجنتىّ وجبينى !

كم أنا مشتاق إلى نسمة يا سماء !

فابعثيها رَخيةً ندية ، عليلةً بليلة !

تنعش فؤادى وتثلجْ برفيفها صدرى

وكان ماخافت بروكريس أن يكون ! فها هو ذا سيفال يهتف باسم حبيبته نسمة ويتغنى ، ويتمنى لو جاءته تقبل خديه ووجنتيه ؛ وهاهو ذا يضرع إلى السماء أن ترسلها إليه رخيةً نديةً تشرح الصدر وتثلج الفؤاد ... فماذا بعد هذا ؟ وأى برهان وقد سمعت الأذنان ؟ « إذن ، لقد كذب علىّ فى الأولى ، ولن يكذب علىّ فى الثانية ... إذن لقد صبا فؤاده إلى أورورا ، وما يزال فؤاده يصبو إلى الغانيات من كل جنس وفى كل فج ... آه للنساء الضعيفات من الرجال الأقوياء ... ويلى عليك ياسيفال ... ويلى عليك وألف ويل !

وعاثت الوساوس فى صدرها ، وانقلبت أضواء الظهر الساطعة ظلاماً داجياً في عينيها الحزينتين ، فأرسلت آهةً عميقةً قطعت بها على سيفال غناءه ، فهب الفتى مذهولاً مروّعاً ، وحسب أن وحشاً يتربص به فى الحشيش ، فجمع قوته ، وتناول حربته — حربة ديانا التي لاتخطىء — وأطلقها إلى المكان الذى صدرت منه الهمهمة ، وذهبت الحربة لتستقر فى صدر بروكريس !! وا أسفاه !

لقد جرى سيفال ليرى هذا الصيد الجديد ، فماذا رأى ؟

— بروكريس ؟ ؟ يا للهول ؟ أهو أنت ؟

— ... ؟ ...

— وماذا جاء بك الساعة يا حبيبتي ؟

—لا ... شيء ... فقط ... لاتتزوج ... نسمة ، من بعدي!

—نسمة ؟ أوه ! إنها لا شيء ... لقد كان الجو متأججا من الحر يا حبيبتى ... وكنت أتمنى أن تهب علىّ نسمة من الريح تروح على ! ...

— أحق ... هذا ؟ ...

— هذا هو الحق وحبك يا بروكريس

— إذن ... سلام ... عليك

— بروكريس ! بروكريس ! لا ! لا تغمضى عينيك دونى ؟ إفتحيها لسيفال !

* * *

ولكنها ماتت ... وماتت بيد زوجها وحبيبها الأمين الوفى!

وودعت الحياة وليس فى قلبها أثارة واحدة من الشك فى حبه وإخلاصه ...

وأرسل الفتى أنينه في الآفاق ، ورفع وجهه ليقلبه فى السماء بالشكوى ، ولكنه رأى ... أورورا .. واقفة تبتسم وتضحك.. فجن جنونه ... وانطلق هائما على وجهه ، لا يلوى على شيء ، ولا ترقأ له دموع ... حتى مات !

دريني خشبة



حادث عظيم في الصحافة البريطانية

وقع في يوم أول أكتوبر الجاري حادث عظيم فى الصحافة الانكليزية بل فى الصحافة العالمية بأسرها ، فقد اختفت جريدة « المورنن بوست » أقدم الصحف اليومية الانكليزية ، وفقدت كيانها المستقل لتندمج في منافستها القوية جريدة «الديلى تلغراف» .

ومنذ أول أكتوبر تصدر الديلى تلغراف باسمها الجديد وهو « الديلى تلغراف والمورنن بوست » ونستطيع أن نقدر أهمية هذا الحادث الصحفي متى علمنا أن « المورنن بوست » قطعت إلى اليوم مائة وخمسة وستين عاماً من حياتها المستقلة ، وأنها لبثت مدى حياتها الطويلة دائماً من أعظم الصحف البريطانية وأقواها نفوذاً .

وقد انشئت المورنن بوست في سنة ١٧٧٢ ، واستمرت تصدر بانتظام حتى اليوم وكانت نزعتها دائماً دستورية محافظة ، ولكنها كانت تصطبغ دائماً بنزعة استعمارية وامبراطورية عميقة ، وكانت دائماً أشد الصحف البريطانية معارضة للسياسة التحريرية ، ومن ثم فقد كانت أشدها خصومة لسياسة الحكم الذاتى سواء فى ارلنده أو الهند كما كانت من أشدها خصومة للحركة الوطنية المصرية وللمعاهدة المصرية الانكليزية . أما جريدة « الديلى تلغراف » منافستها القديمة ووراثتها اليوم فقد أنشئت في يونيه سنة ١٨٥٥ ، على يد أسرة لادسون الشهيرة ، واستمرت تحت إشرافها وإدارتها حتى سنة ١٩٢٨ إذ انتقلت ملكيتها من اللورد برنهام آخر أصحابها من أسرة لادسوف إلى اللورد كامروز صاحبها الحالى .

وكانت الديلى تلغراف أول جريدة انكليزية بيعت بينس واحد (أربعة مليمات) وهو ما اعتبر يومئذ مغامرة صحفية جريئة لأن الصحف كانت تباع يومئذ بأربعة إلى خمسة بنسات ، وكان صدورها فى أربع صفحات فقط . أما اليوم فهي تصدر فى اثنتين وثلاثين صفحة من القطع الكبير وتباع أيضاً بينس واحد

ونشأت «الديلي تلغراف» حرة في نزعتها السياسية ، وكانت تناصر سياسة جلادستون فى أواخر القرن الماضى ، ولكنها تطورت فى اتجاهها السياسى شيئاً فشيئاً حتى غدت محافظة اتحادية وأخذت تشاطر منافستها القديمة نزعتها الاستعمارية ، ولكن بأسلوب أكثر اعتدالاً وأقل تطرفاً ، وجمعت الديلى تلغراف أقطاب الكتاب فى أواخر العهد الفكتورى ، وتألق فيها نجم طائفة كبيرة من أعاظم الصحفيين ؛ وتولت الانفاق على بعثة استانلى الاكتشافية سنة ١٨٧٤ — ٧٧ . ومن أشهر مواقفها الصحفية حديث نشر للقيصر سنة ١٩٠٨ ولهلم الثانى ، فكان له أعظم صدى ، وكاد يزعزع عروش آل هو هنزلرن ، وكان من نتائجه أن استقال البرنس فون بيلوف رئيس الحكومة الألمانية .

والديلى تلغراف اليوم من أكبر الصحف الانكليزية حجماً ، وأعظمها نفوذاً ، وأوسعها انتشاراً ؛ وقد كانت تطبع حتى سنة ١٩٢٨ ، أعنى أيام أن كانت فى حوزة اللورد برنهام ٨٤ ألفاً ، ولكنها مذ خفضت ثمنها ثانية إلى بنس واحد فى سنة ١٩٣٠ ، ارتفع عدد المطبوع منها إلى ٥٣٢ ألفاً وهو رقم انتشارها اليوم

وقد صدرت الديلى تلغراف عددها الأول فى عهدها الجديد بعد أن ضمت إليها منافستها القديمة بكلمة مؤثرة قالت فيها إنها ترحب بقرائها الجدد قراء المورنن بوست القدماء ، وأنه إذا كان اختفاء المورنن بوست تلك الجريدة الدستورية القوية يعتبر محنة قومية ، فان القراء يستطيعون بعطفهم ومؤازرتهم أن يخففوا وقعها ، وانها باحتفاظها باسم منافستها القديمة إلى جانب اسمها تدلل على ولائها للقضية المشتركة التى دافعتا وما زالتا تدافعان عنها . وأعلنت فى مقال آخر ، سردت فيه تاريخ الجريدتين ، أنها سوف تحافظ أبداً على مبادىء الولاء والحرية والتسامح التى سارت عليها حتى اليوم ، وستكون أبداً عند حسن ظن قرائها وأصدقائها

الكتاب المصريون باللغة الفرنسية

اهتمت الصحافة الفرنسية بالمجموعة التى نشرها المسيو روبربلوم من نفثات أقلام الكتاب المصريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية ، وبكتاب « عودة الروح » الذى وضعه الأستاذ توفيق الحكيم ، ونقله إلى الفرنسية المسيو موريك برن . فقد نشرت جريدة « البتى بارزيان » فى القسم الأدبى مقالا للمسيو جان فينيو الرئيس السابق لجمعية الأدباء تحدث فيها عن كتاب مصر وآثارهم فى الفرنسية ووجوب معرفة أسمائهم ومؤلفاتهم باللغة الفرنسية ليطلع عليها القراء فى فرنسا ، وليأخذ هؤلاء المؤلفون مكانتهم فى أسرة الفكر الكبيرة ، وقد خص المسيو جان فينيو كتاب « عودة الروح » للأستاذ توفيق الحكيم بقسم من بحثه إذ قال :

« إن هذا الكتاب الحى الطريف موضوع باللغة العربية كما أن كتاب فينبير موضوع باللغة العبرية . وقد نقله إلى الفرنسية موريك برن ، وهو من أفضل ممثلى الثقافة الفرنسية فى القاهرة . وقد غير عنوان الكتاب بالفرنسية واستبدله بعنوان « رواية نهضة مصر » وهنا وجه لمناقشته فى هذا الاستبدال لأن القسم الاجتماعى بل القسم الأدبى والسياسى لايتألف منهما الكتاب كله . فالمؤلف يستهل كتابه بنكات مسلية عن حياة الطبقة الوسطى فى القاهرة — وهى حياة بسيطة ضيقة يعنى أصحابها بأمور تافهة — وهم يقولون إن الشرقيين يقفون عند الأمور السطحية الخفيفة ولكن يوجد ثمة عدة حوادث وقعت للشاب محسن المتيم بحب جارته سنية الحسناء ، وقد كان يجب أن يراعى جانب الايجاز في الكلام عن هذا الموضوع . ثم إن الحادثين اللذين يطلق هذا التلميذ لسانه فى الكلام عنهما منصرفاً عن تتمة تصريحاته الغرامية — يستطاع الاستغناء عنهما

وبما أن الموضوع يدور على « عودة الروح » فقد كان يجب أن يبين المؤلف كيف فقدت تلك الروح . وهذه النقطة مصروف النظر عنها ، ومهما يكن من الأمر فان القسم الثاني من الكتاب وحوادثه تجرى فى إحدى ضواحى القاهرة فى منزل والدى محسن يظهر لنا أنه أفضل قسم فى الرواية ، وفيه وصف لوالدى محسن اللذين كانا من أصحاب الأطيان الموسرين ، بيد أنهما كانا أنانيين يعاملان الفلاح بقسوة

ولدينا محاورة بين موظف بريطانى وعالم فرنسى تبين لنا الأمانى الطامحة التى يمتاز بها هذا الجنس من البشر . فنحن نقرأ فى الكتاب بعض عبارات تقتضى التأمل كالحديث الذى دار فى القطار الذى سافر به محسن إلى أطيان والده ، فان أحد المسافرين وهو مصري الجنسية قال فى عرض كلامه عن البلدان الأوربية « هذه بلدان خالية من الأخاء خلافاً لبلادنا حيث نرى الأقباط والمسلمين إخواناً »

وهذا الكلام موضوع نظر يبعث على التساؤل بعد مطالعة « مجموعة الكتاب المصريين باللغة الفرنسية » ورواية توفيق الحكيم عن الأفكار الأدبية الكبيرة ، وعما إذا لم يكن الهدف الاسمى الدينى آخذاً فى الانحطاط عن مستواه الأصلى فى العالم ، على أن الانسان لايسعه إلا إبداء الدهش من رؤية فضائل الدين الاسلامى القديمة مفقودة من هذه الكتب المختلفة وعدم اهتمام المؤلفين بها . ولم تنفرد أوربا بافتقارها إلى الحب الحقيقي وهو دون سواه قادر على تجديد شباب الأمم والنفوس »

وقد كتبت السيدة تريز هربان مقالا عن رواية « عودة الروح » نشرته فى جريدة « ليجور » وإليك بعض ما جاء فيه :

« إن مصر تظل فى نظرنا أرض الماضى وهى ترتبط بحكايات النيل وأسرار الأهرام ولا نزال نسترشد بفنها وديانتها مدة طويلة وربما ظللنا مدة طويلة أيضاً صارفين النظر عن الاهتمام بحاضرها

« ولا نجد مندوحة عن الاعتراف بالجميل للكاتب العربي توفيق الحكيم وموريك برن مترجم روايته لكشفهما أسرار مصر الأخرى ، أى مصر الفلاحين ، والطبقة المتوسطة المقيمة فى ظلال الرموس المصممة على البقاء فى الحياة »

الحياة فى القطب الشمالى

يفيد التقرير الأخير الذى أرسله الرفيق « بابانين » رئيس البعثة القطبية العلمية السوفياتية أن هذه البعثة دهشت عند مارأت بعض الحيوانات والطيور الحية فى المحيط المنجمد الشمالى

وقد كتب الرفيق « بابانين » من محطة القطب الشمالى يقول إنه يستفاد « اعتماداً على رواية « نانسن » أن كثيراً من الخبراء يشيرون إلى أن المحيط المنجمد الشمالى خال من الاحياء ، على أننا قد شهدنا ظاهرة فى غاية الأهمية ، ذلك أننا سمعنا فى اليوم الذى وصلنا فيه إلى القطب زقزقة طائر ، فخيل إلينا فى الحال أنه قد جيء به على إحدى الطيارات . على أنه ظهرت هنا بعد ذلك طيور أخرى من أنواع مختلفة

وكان الرفيق شيرشوف (العالم المائى الذي يرافق البعثة) يجد دائماً كميات كبيرة من متباين أنواع السمك فى مختلف الأعماق »

سرقة لوحة زيتية قيمة من متحف ليبزج

سرقت فى صباح يوم ١٠ أكتوبر الجارى من متحف ليبزج لوحة زيتية للرسام الألمانى لوكاس موللر المعروف باسم لوكاس كراناخ

وتمثل اللوحة المسروقة رسماً فضياً لموسى الكليم وفى يده الألواح التى كتبت عليها الشريعة اليهودية ، وظهر فى مؤخر الصورة الشعب اليهودى

وقد رسمت هذه اللوحة منذ حوالى ٤٠٠ سنة ، وكانت تعد من أثمن اللوحات الموجودة بمتحف ليبزج وتقدر قيمتها بخمسة وعشرين ألف مارك تقريباً

والذى يهمنا معرفته هو أن لوكاس كراناخ هذا فنان ألمانى أصيل ولد سنة ١٤٧٢ بكراناخ فى أوبر فرانكين ، وكان مصوراً خاصاً لقصر الأمير فريدريش العاقل بفيتيمبرج ، واشتغل بكثير من الأعمال كالصيدلة وبيع الكتب إلى جانب اشتغاله بالفن ، وكان له مصور كبير للتصوير

وقد اختير عمدة لبلدة فيتيمبرج المذكورة سنة ١٥٣٧ وكان صديقاً حميماً لمارتن لوثر صاحب المذهب الدينى المعروف ، ومات سنة ١٥٥٣ فى نفس البلدة

وكان كراناخ أهم أستاذ فى الفن الألمانى فى كل منطقة سكسونيا دون نزاع ، وقد غلب على فنه فى أول أمره طابع الدقة والقوة فى إبراز المميزات الشخصية واستمر كذلك حتى سنة ١٥٢٠ إلا أنه بعدئذ تهاون بعض الشىء فى إخراج قطعه فجاءت ناعمة وأقل قوة مما سبقها

والدارس للوحاته يلاحظ أنه كان ميالاً إلى الوجوه المربعة وكثيراً ما جعل سيقان النساء أطول من القدر المناسب

ويعتبر كراناخ مصوراً ألمانياً شعبياً متبسطاً فى اختيار مواقفه تخير ألوانه من تلك التى تميل إلى المرح والبهجة

وله عدة لوحات كثيرة بالزيت وبالقلم الرصاص وبالحفر على الخشب محفوظ معظمها فى ألمانيا وقليل منها فى فينا وفلورنسا وغيرها

والعبرة هنا هى أن الزمان لم يمنح مصر بعد فناناً يستطيع تاريخ الفن أن يسجل اسمه من حيث الاتجاه الجديد أو الابتكار أو المقدرة الفذه ؛ ذلك لأننا قوم نسجل لأنفسنا بأنفسنا النبوغ والعبقرية دون حاجة إلى تسجيل التاريخ ا . م

المستشرقون والإسلام

علمنا أن الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حسين رئيس الوفد الذى قام بتمثيل الأزهر فى مؤتمر تاريخ الأديان قد رفع إلى فضيلة الأستاذ الأكبر مذكرة تتضمن أسماء الكتب العلمية التى وضعها المستشرقون فى مختلف المسائل الإسلامية ، وجاء بعضها محرفاً وبعضها لا يفيد حكمة الشارع ، ثم بولغ فى تحريف مدلولاتها ومعانيها على نحو يتعذر معه فهم أحكام الإسلام على وجهها الصحيح

وقد أشار الأستاذ فى مذكرته إلى أن هذه الكتب تدرس فى بعض الجامعات العلمية على أنها صورة صحيحة لما جاء فى الشريعة الإسلامية من أحكام وقواعد ، وبما أن مؤتمر الشريعة الاسلامية — الذى رؤى أن يعقد فى القاهرة — سيتناول بالبحث هذه المسائل ، فمن الواجب أن ندرس هذه الكتب دراسة كاملة لتقول مشيخة الأزهر فيها كلمتها فى هذا المؤتمر

وقد وافق فضيلة الأستاذ الأكبر على هذا وأصدر أمراً إلى إدارة المعاهد الدينية بأن تطلب إلى المكتبات الشهيرة فى انجلترا وفرنسا وألمانيا لتبعث إلى المشيخة بهذه الكتب التى ذكرت فى قائمة خاصة وستؤلف لجنتان إحداهما من كبار رجال القانون وبعض المتضلعين فى اللغات الأجنبية لتطلع على هذه الكتب ولتنقل ما جاء فيها خاصاً بالمسائل الإسلامية إلى اللغة العربية . والثانية من كبار علماء الأزهر لتقوم بوضع الأحكام الصحيحة لهذه المسائل على أن تعد بياناً يشمل جميع الأخطاء التى جاءت فى هذه الكتب ليلقى فى المؤتمر باسم مشيخة الأزهر

فى المجمع اللغوى

وضعت مذكرة لعرضها على صاحب المعالي وزير المعارف بتحديد موعد افتتاح المجمع اللغوي فى دورته الخامسة

وقد تم طبع مجلة المجمع فى دورته الثالثة وستوزع قريباً ويبدىء بطبع مجلة الدورة الرابعة الماضية . وسيجرى المجمع في دورته الجديدة على نظامه العادى ، نظراً لتأخر صدور القانون الجديد الخاص بالمجمع ؛ وكان مجلس النواب قد أقر هذا القانون فى دورته الماضية ولكن مجلس الشيوخ أرجأ التصديق عليه إلى الدورة الجديدة

كليات المقاصد والكلية الشرعية

كتب إلينا أستاذ فاضل من أساتذتها يقول :

زار سعادة العشماوى بك وكيل وزارة المعارف المصرية كليات المقاصد والكلية الشرعية التي أنشأها سماحة الأستاذ الكبير مفتى لبنان لتعد الطلاب للدراسة العالية فى الأزهر الشريف ، ولتنشىء الجيل الجديد الذي يجمع بين الثقافة الاسلامية والثقافة الحديثة ، فسرّ منها سروراً عظيما ، وزار قاعاتها ومكتبتها ، وحضر درساً فى الأدب العربي للأستاذ على الطنطاوى ودرساً للأستاذ الشيخ محمد الداعوق ، فكان إعجابه شديداً ، وأعلن أنه على استعداد لقبول اثنين من طلاب الكلية فى دار العلوم العليا فى مصر بلا امتحان ، فكان ذلك مكرمة عظيمة لسعادته تشكرها له الكلية خالص الشكر ، وترجو أن ترى آثارها الطيبة فى تقدم الكلية وازدهارها ، وتوثيق الصلات بين مصر والأقطار الشقيقة فى أقرب وقت ، ونأمل من الرسالة (المجلة العربية الكبرى) أن تبلغه هذا الشكر على صفحاتها

جمعية فرنسية اسلامية فى باريس

ألفت أخيراً جمعية فرنسية إسلامية فى باريس غايتها تعزيز الصداقة وتنمية العلاقات الفرنسية الاسلامية على قاعدة المساواة بين جميع أعضائها والتعلق المتين باحترام العقائد والآراء والابتعاد عن التبشير

وستتخذ هذه الجمعية مكتباً لها على مقربة من الجامع فتجعله مركز صداقة وتربية وتعاون . وسيؤلف هذا المكتب من : قاعات درس لعمال شمال أفريقيا الموجودين فى منطقة باريس ، ومكتبة تحتوى على مؤلفات فرنسية وعربية ، وغرفة للمطالعة مجهزة بكتب عديدة عربية وفرنسية وقاعات للمحاضرات وعرض الأشرطة السينمائية

وهذا النادى سيعد لأن يصبح مركز ثقافة فرنسوية وعربية وستنتشر فائدته فى فرنسا وأفريقيا الشمالية والشرق القريب بفضل العلماء والأدباء والفنانين والفلاسفة العرب والفرنسيين الذين سيترددون عليه

ذكرى مؤرخ كبير

احتفل أخيراً فى مدينة فالنسيين بفرنسا بذكرى المؤرخ الفرنسي الشهير « فراوسار » لمناسبة انقضاء ستمائة عام على مولده إذ أنه ولد على أرجح الروايات سنة ١٣٣٧ ، وقد اتخذ الاحتفال أهمية خاصة ، لأن فراوسار يعتبر فى الواقع عميد المؤرخين الفرنسيين فى التاريخ الفرنسي فهو أول من كتب التاريخ فى فرنسا بروح جديد ، وأول من فهم أن التاريخ شيء أكثر من القصة والرواية ، وقد كان التاريخ حتى عصر فراوسار يكاد يمتزج بالقصة والأسطورة دائماً ، وكان لا يزال خاضعاً لوحى الكنيسة ، وكان المؤرخون هم الرهبان غالباً ، فكان التاريخ مزيجاً من الروايات التى يصوغها رجال الدين حسبما تملى أهواء الكنيسة ، وكانت الملوكية والشعب والحروب والحوادث جميعاً ينظر إليها من هذه الناحية ، ويحكم عليها طبقاً لهذه الروح ، ولكن فراوسار استطاع أن يتحرر من هـذه الروح وأن يكتب التاريخ على أنه سجل الحوادث الجارية . وقد دون حوادث عصره فى كتاب شهير يعتبر من هذه الناحية ذا قيمة تاريخية خاصة ، وهو تاريخ فرنسا وانكلترا وعلائقهما فى عصره ؛ ويعرف هذا المؤلف عادة « بتاريخ فراوسار » ، ويعتبر أنه أول مؤلف فرنسي وضع نهج التاريخ الحديث ومهد لتطوره كرواية حرة للحوادث والشئون

ونستطيع أن نقارن فراوسار من هذه الناحية بمؤرخنا العظيم ابن خلدون ، فكلاهما عاش فى نفس العصر ، وكلاهما استطاع قبل غيره أن يفهم روح التاريخ الحقة ، وأن ينظر إليه من ناحية جديدة ، وأن يعامله باعتبار أنه أكثر من قصة ورواية تخضع لتأثير العوامل الدينية أو السياسية ، ولكن ابن خلدون كان بلا ريب أوسع آفاقاً من فراوسار ؛ ولم يرتفع فراوسار أو غيره من المعاصرين إلى تلك الآفاق الرفيعة التى سما إليها ابن خلدون ، والتى جعلت منه أول فيلسوف اجتماعى ، وأول مؤسس لفلسفة التاريخ وأصول الاجتماع

فى نادى القلم العراقى

اجتمع نادى القلم العراقى مساء اليوم الثاني من هـذا الشهر فى دار أحد أعضائه السيد توفيق وهبى وتلا السكرتير رسالة وردت من نادي القلم الانكليزى يطلب فيها ترشيح أحد كبار أدباء العراق لتعيينه عضو شرف أسوة بالأمم الممثلة فيه

فقرر المجتمعون ترشيح معالى الأستاذ الشيخ محمد رضا الشبيبى رئيس نادى القلم العراقى ووزير المعارف لهذه العضوية الفخرية

وقد ألقى فى هذا الاجتماع الدكتور متى عقراوى فصولا من رسالة حول التعليم الاجباري فكانت مدار مناقشات دقيقة



يوميات نائب فى الارياف
للأستاذ توفيق الحكيم

محاورات أفلاطون
ترجمة الأستاذ زكى نجيب محفوظ

للأستاذ محمود الخفيف

تفضل الأستاذ الحكيم فأهدى إلىّ كتابه « يوميات نائب فى الأرياف » وكنت قد قرأته فصولا فى مجلة الرواية ؛ بيد أني عدت فتلوته وقد انتظمه مجلد واحد فألفيتنى أكثر استمتاعاً به وأكبر محبة له ولصاحبه

المؤلف الفاضل غنى بشهرته عن التعريف ، عرفه جمهور القراء وأحبوه فى « أهل الكهف » ووثقوا من مواهبه الفنية في تلك القصة الرائعة وفى أختها « شهر زاد » وزادتهم مؤلفاته بعد ذلك معرفة به ، وارتياحاً إلى فنه ، وابتهاجاً بتوفيقه . والحق عندى أن توفيق الحكيم قد صار فى « القصة المصرية » أحد أعلامها الأفذاذ ، بل لقد خطا بها وهى بعد فى طفولتها خطوات سريعة وثيقة حتى لقد غدا في هذه الناحية « كعبد الوهاب » فى الموسيقى وكالمرحوم « مختار » فى فن النحت ، وحق لمصر أن تفخر به كما تفخر بهما . ولست أعنى بالإشارة إلى « القصة المصرية » تبرزه فيها وحدها فلقد كتب له النجاح فى ذلك الفن فى أوسع حدوده ورأيناه موهوباً كما يقول أهل الفن كما رأيناه يجمع إلى موهبته ثقافة من الطراز الأول . والقصصى يخلق أولا وفيه القصة : فى نفسه أسلوبها وروحها ، وفى رأسه الميل الشديد إلى صوغها وإعلانها . وقل مثل هذا عن كل ذى فن

والكتاب الذى أحدثك عنه ضرب من القصة إذا تجاوزنا عن أصولها المصطلح عليها فهو كما ترى اسمه « يوميات » . غير أن الأستاذ قد ألبسه ثوب القصة فى مهارة عجيبة تعد فى ذاتها ناحية من نواحى نبوغه فى هذا الفن . فقد جعل من « ريم » ومن حادثة مقتل « قمر الدولة » سلكا ينتظم أجزاءها ويتسلط على القارىء من أول الكتاب إلى آخره ؛ ويمكنك أن تعتبرها نوعاً من القصص « الاصلاحى » على نحو ما كان يجرى عليه دكنز فى فنه وما كان يتوخاه منه ، وهنا نرى من الأستاذ الحكيم مسلكا جديداً فى القصص لم ينزل به عن مستواه في مسلكه السالف فى أهل الكهف وشهر زاد ، تلك الناحية الفلسفية التى حلّق بها فى أفق عال فسيح . أجل رأينا في هذا الكتاب من مستلزمات الفن ومن آياته ما يعجب ويطرب ؛ رأينا أولاً عنصر التشويق كما يجلى فى خلق حادثة القتل ثم إخفاء القاتل والبحث عنه ، وكما يتجلى فى شكل أدق وأجمل من ذلك الوصف الشعرى الجميل الفائق لتلك الفتاة الريفية « ريم » ذلك الوصف الذى عطف عليها القلوب ، وجذب إليها النفوس ، وأكسب القصة مسحة من الجمال السامى كانت تظهر فيه نظرات الأستاذ الفلسفية ؛ ورأينا كذلك فى القصة عنصر الفكاهة ناضجاً حلواً تسيغه الأفئدة وتعلق به ، كما رأينا دقة الوصف وشموله فى غير التواء أو تعقيد ؛ ورأينا خبرة الأستاذ بالوسط الذى يكتب عنه تلك الخبرة المدهشة التى لم يدق عنها معرفة العبارات المحلية التى كان يجريها على ألسنة أشخاصه على اختلاف أعمارهم وطبقاتهم وفصائلهم . هذا إلى وصف الأشخاص أنفسهم حتى لكأنك تراهم وتستمع إليهم . وها أنذا أحد أبناء الريف أشهد ما وجدت في وصفه شذوذاً ولا لمحت فيه مسحة من خيال . ورأينا فى القصة إلى جانب ذلك كله النقد الصحيح الذى يرضيك ؛ نعم قد يحسب بعض القراء ممن لم يروا مثل هؤلاء الأشخاص الذين وصفهم الأستاذ ، كالقاضى الأهلى والقاضى الشرعى مثلاً أن عنصر

« الكاريكاتير » زائد فى بعض أوصافه ، ولكن الذين رأوا فى الحياة مثل هؤلاء شهدوا له بالصدق ، وأعجبوا بطريقته وطلبوا منها المزيد

فوق هذا كله أو قل بهذا كله تحققت للكتاب ناحية فريدة وهو أنه سجل لعصر من عصورنا ، فيه كثير من ألوان حياتنا فى بيئة من بيئتنا ، سوف تقرأه الأجيال المقبلة وترى فيه من نواحى اللذة ما يحببه إليها ويكسبه بذلك طول الحياة . ولن أفرغ من هذه العجالة دون أن أطلب ملحاً من الأستاذ الحكيم أن يجرى قلمه على هـذا النحو فى نواحى حياتنا الأخرى فيرينا يومياته فى بيئة الموظفين مثلاً فى « الدواوين » أو فى غيرها من الجهات فما أحوجنا إلى هذا النوع من القصص يجرى به قلم فنان

* * *

أنتقل بالقارئ بعـد ذلك إلى الكتاب الثانى « محاورات أفلاطون » وقد اضطلع بنقله إلى العربية الأستاذ زكي نجيب محمود ونشرته لجنتنا المباركة الناهضة « لجنة التأليف والترجمة والنشر »

عمل الأستاذ زكى كما ترى عمل المعرب ، وقد يحسب البعض أن التعريب أمر هين لا يكلف صاحبه عناء ، ولا يكشف عن مقدرة أدبية ؛ ولكن الذين مارسوا هذا العمل والذين يقدرون الأمور حق قدرها ، يعرفون أنه من أشق الأعمال ومن أقطعها حجة فى معرض التدليل على المقدرة والكفاية الثقافية ؛ وحسبك أن تذكر ما بين اللغات من تباين وتفاوت فى الأساليب والتراكيب والاصطلاحات والمجازات وغيرها من ضروب التعبير ، وأن تذكر ما تفتقر إليه اللغة العربية من الألفاظ التى تقابل ما استحدث من الألفاظ العلمية فى اللغات التي تنقل عنها ، لتعلم مقدار الجهد الذى يعانيه المعرب

وفوق ذلك فهناك ما هو أهم من اللغة فى ذاتها ؛ هناك أصول الترجمة الصحيحة وما تتطلب من شروط ، وأهمها فى رأيى الإلمام التام لا باللغتين فحسب ، فذلك قد يتوفر للكثيرين ، ولكن الإلمام التام بالفن الذى يترجم . وعندى أن الذى يتعرض لترجمة فن من الفنون لا يفهمه حق الفهم ، إنما يكون كسالك الصحراء أضلته دروبها أو ذهب بلبه فضاؤها الشاسع وقد جهل صواها ، وتاه عن مبدئها ومنتهاها . أما الذى يترجم عن فهم وخبرة ووثوق من الموضوع فإنه كالربان الماهر عرف وجهته واتخذ إليها سبيله ؛ نعم يكون لفاهم الموضوع من فهمه هذا ما يعينه على التعبير الصحيح ، وما يجعل اللغة ذاتها طيعة فى يده مواتية له فلا يتعثر ولا يقف ولا تظهر فى عمله الركة ولا يشوبه الإبهام والتناقض والاضطراب

والأستاذ زكي كما عرفته من قرب وكما عاشرته وصاحبته فيلسوف بطبعه ، لا ترى الفلسفة فيه أثراً من آثار الثقافة فحسب ، بل هى مظهر من مظاهر الطبع قبل هذا . تحدثه فى أى أمر فيفلسفه ، إن صح هذا التعبير ؛ لذلك كان شغفه بالفلسفة ومسائلها نتيجة ميل ذاتى ، وذلك لعمرى سبيل العلم الصحيح . والذين لا يعرفونه إلا فيما كتب يشهدون له بطول الباع فى هذه الناحية . وهل نسينا فصوله الممتعة فى الرسالة ؟ وهل نسينا كتابيه اللذين اشترك فى وضعهما مع الأستاذ العلامة أحمد أمين وهما « قصة الفلسفة اليونانية » و « قصة الفلسفة الحديثة » ؟

إذا عرفت هذا عن زكي ، وعرفت معه أنه متين فى لغته ، ضليع في الانجليزية ، أدركت مقدار نجاحه فى ترجمة هذا الكتاب الذي أحدثك عنه . الحق أنى معجب بهذه الترجمة ، محتكم فيما أقول إلى الذين قرأوا الكتاب فصولاً متتابعة فى الرسالة قبل أن يجمع فى سفر . ذلك أنى أخشى أن يحمل البعض كلامي على المجاملة لما بيني وبين زكي من صداقة . وإذا كانت عين الرضى عن كل عيب كليلة ، فتلك العين من ناحية أخرى ترى من المحاسن ما يخفى على غيرها وما يدق على أي عين سواها على أني لو وجدت فى تلك الترجمة عيباً ما ترددت فى ذكره بل وفى ابرازه

هذا عن الترجمة ، أما عن الكتاب فى ذاته فهو من تلك الكتب التى يعد نقلها إلى لغة معينة خدمة جليلة لتلك اللغة هذا لأنه من كتب الثقافة العالية التى أحدثت أثراً كبيراً فى النهضات الفكرية للأمم التى ترجمته . وحسبك أن ترى سقراط كما يصوره تلميذه أفلاطون فى ذلك الحوار ، وأن ترى طرفاً من فلسفته فى الأخلاق والحياة الانسانية ، وأن ترى أسلوبه فى التفكير وتلمس أوجه الصواب فيما يطرق من مسائل ، وأن ترى خلقه القويم وتحس عظمة روحه وقوة نفسه ؛ ونقل ذلك الكتاب إلى لغتنا بالذات مكمل لناحية من نواحى النقص من ثقافتنا ولذلك فهو مظهر من مظاهر نهضتنا الفكرية الحديثة

الخفيف

طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدى رقم ٧